كتاب

تاريخ الرومانيين

تأليف

محمد بك فريد

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد فلا مرية في ان مطالعة التاريخ من أهم الامور التي تثقف العقول وتهذب الاخلاق وتنمي العواطف الوطنية في الشعوب اذ بواسطته يقف الانسان على أسباب ارتقاء الامم فيتبعها ويعلم كنه موجبات انحطاطها فيجتنبها ولذلك حض العقلاء على درسه درساً فلسفياً لا الاكتفاء بحفظ بعض تواريخ الوقائع وأسماء الملوك وسردها عن ظهر قلب بل بالبحث والتنقيب عن أسباب كل حادث والوقوف على حقيقتها وربط الحوادث ببعضها ولكي يتمكن المطالع من الاستفادة من مطالعته يجب على كاتب التاريخ ان يراعي كل هذه الملحوظات عند كتابته حتى يأتي بالغرض المقصود وتكون مطالعته مفيدة للاهل والوطن هذا ولما كان تاريخ الرومانيين مفعماً بالحوادث الصادرة عن حب الوطن والاخلاص له والتفاني في خدمته والتهالك في الدفاع عنه والذود عن حوضه وكانت مطالعته واجبة على كل من يريد معرفة

طرق تقدم الأمم وارتقائها وكيف تنال الحرية والاستقلال بالدفاع عن حقوقها قبل كل معتد ظالم والاتحاد على مافيه خير وطنهم وفلاحه وجمع كلمتهم امام الاجنبي المهاجم والدخيل المزاحم ونبذ النفاق والشقاق من بينهم ليكونوا يداً واحدة لاعلاء شأن الوطن وبنيه أردت ان ألخص تاريخ هذه الامة التي ملكت أغلب جهات المسكونة وامتدت حدود أملاكها من المحيط الاتلانطيقي غرباً الى جبال القوقاز شرقاً أى من الدرجة ١٢ غرب باريس الى الدرجة ٤٠ شرقاً عباره عن ٥٢ درجة ومن بلاد بريطانيا (انكلترا) شمالا الى اصوان جنوباً أى من الدرجة ٢٣ الى الدرجة ٥٣ عرضاً مبتدئا هذا التاريخ من تأسيس مدينة رومة عاصمة هذه المملكة في سنة ٧٥٤ قبل الميلاد الى يوم دخول مدينة القسطنطينية (الاستانة) فى حوزة دولة آل عثمان فى ستمبر سنة ١٤٥٣ بعد الميلاد وقد قسمته الي خمسة أقسام الاول من تأسيس رومة الي سقوط الملوكية وتأسيس الجمهورية والثانى يحتوي على تاريخ الجمهورية الرومانية الى عهد استئثار اغسطس بالحكومة وتأسيس الحكومة الامبراطورية والثالث ينتهى الى تقسيم الدولة الرومانية الى دولتين شرقية وتحتها بيزنطه التي سميت فيما بعد القسطنطينية وهى الاستانة وغربية وتحتها رومة والرابع يحتوى على تاريخ المملكة الغربية الى يوم انقراضها بتوالى هجمات المتبربرين عليها والخامس على تاريخ الدولة الشرقية ليوم دخول السلطان الغازي محمد الثاني العثمانى الملقب بالفاتح الاستانه وجعلها عاصمة لدولة آل عثمان

القسم الأول من سنة ٧٥٤ ق . م الي سنة ٥١٠ ق . م

(تأسيس مدينة رومه)

لابد وأن يكون أصل مدينة رومه كاصل باقى مدن العالم اى بعض اكواخ حقيرة لصيادي الاسماك على ضفاف نهر (التبر) ثم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً كلما ارتقى سكانها في عالم التمدن الى أن وصلت تلك الدرجة العلياء وصارت تلك المدينة الشماء التى تفاخر الشعراء في مدحها وتباري الكتاب فى وصف مبانيها العمومية وحركتها العلمية والتجارية لكن لما كان دأب كل أمة غمض أصل تاريخها ان تضع لنفسها تاريخاً وهميا كما تزينه لها مخيلتها فينتسب بعضها الى جبابرة اشتهروا بالقوة والبأس والبعض الاخر الى بعض الملائكة أو النجوم أو الى آلهتهم الخيالية ترفعاً عن عامة الامم ولزيادة التأثير على عقول افرادها كذلك وضع مؤرخو مدينة رومة الأولون الخرافة الآتية ناسبين اليها تأسيس عاصمة دولتهم ونحن ننقلها على علاتها مع عدم اعتقادنا بصحتها أصلا كما يرى المطالع

قالوا انه لما خربت مدينة (طرواده) وصارت أثراً بعد عين هاجر منها (اينيه) مستصحباً معه ولده (اسكاني) واصنام المدينة

ونزل بساحل بلاد اللاتينيين فاكرم ملكها المدعو (لاسيوس) وفادته وزوجه ابنته (لافينيا) واقطعه أرضاً فسيحة بني فيها مدينة ودعاها لافينيوم نسبة لزوجته فصار حليفه ومن أهم أعوانه فى حروبه مع مجاوريه واستمر على ذلك مدة الي أن اختفى في احدي الوقائع الحربية فظن الاهالى انه صعد الى السماء وعبدوه باسم (جوبيتر انديجيت)

ثم ترك ابنه (اسكانى) مدينة (لافينيوم) لرداءة موقعها وأسس مدينة (ألبا) على جبل (البانو) أحد الجبال القائمة عليها مدينة رومة وبعد وفاته تعاقب عليها سبعة ملوك من نسله أعقب سابعهم ولدين (نوميتور) و (اموليوس) وكان الملك بحكم الوراثة لأرشدهم وهو الأول فلم يرق ذلك في عين أخيه (اموليوس) بل استأثر بأغلب أملاك والده ولم يترك لاخيه الاكبر الا شيئاً قليلاً وقتل ابنه ووضع بنته (سلفيا) في احد أديرة راهبات (فستا) حتى لا يعقب أخوه من يرثه في الملك وتحصر السلطنة في أعقابه دون أخيه الاكبر . وبينما كانت سلفيا تدلى دلوها في احدي الآبار المقدسة اذ تجلي لها الاله (المريخ) ونفخ فيها من روحه فحملت ووضعت غلامين فقتلت بناء على قوانين راهبات (فستا) والقي ولداها فى نهر (التبر) فحملتهما أمواجه الى أن رسيا تحت ظل شجرة فأتت ذئبة على صوتهما وأرضعتهما على مرأي من أحد رعاة الملك عمهما واسمه (فستولوس) فحملهما الراعى الى زوجته (اكالورنسيا) فدعتهما

(روملوس) و (ريموس) واعتنت بتربيتهما مع أولادها حتي بلغا أشدهما بين الرعاة وتشاجرا ذات يوم مع رعاة أحد أغنياء القوم المسمى (نوميتور) فقادهما امام سيده فأعجب بشجاعتهما وشدة تشابهما ولذلك أخذ يبحث عن أصلهما وصحة نسبهما حتى وصل الى الحقيقة وأعلمهما بها فتألبا مع باقى الرعاة على عمهما (اموليوس) وقتلوه وولوا مكانه على مدينة أبيه سيدهم (نوميتور) فاقطعهما قطعة عظيمة من الارض على شاطئ نهر التبر فعزما على بناء مدينة عظيمة تكون لهما ولذريتهما لكنهما اختلفا فى أيهما يقوم ببنائها

وبعد الجدال اتفقا على أن يصعد كل منهما على ربوة ومعه جماعة بصفة شهود ومن يرى منهما طيوراً أكثر من الثاني يكون أحق ببناء المدينة فرأى ريموس ستة عقبان ورأى رمولوس اثنى عشر ولذلك تقرر أن يخط رمولوس أساس المدينة فعلق ثوراً وعجلة في محراث وشق به الارض حول مرتفع (بالاتينو) علامة على سور المدينة الجديدة وكان ذلك على ما جاء في كتب الرواة في ٢١ ابريل سنة ٧٥٤ ق م ثم أخذ في بناء السور ولما ارتفع قليلا وثب ريموس من عليه استهزاء فقتله رمولوس بيده قائلا فليمت هكذا كل من يجترئ على الاعتداء عليها وقيل غير ذلك لكن هذه الرواية هى المتفق عليها تقريباً ومن ذلك الحين صار رمولوس ملكاً منفرداً على مدينته الجديدة التي سماها (رومه) نسبة له وتخليداً لاسمه وأباح الاقامة فيها لكل من لجأ اليها من الامم الاخرى من المذنبين الفارين من

وجه العدالة فتوارد المهاجرون اليها من كل فج حتى كثر عدد الرجال عن النساء زيادة عظيمة وامتنع المجاورون اليهم من مصاهرتهم لكون أغلبهم من الاخلاط الذين لا خلاق لهم. فاضطر رمولوس الى تدبير طريقة لتكثير عدد النساء واتفق مع رجاله على دعوة القبائل المجاورة لهم الى احتفال عظيم يقيمونه اكراماً لاحد آلهتهم وسبي بناتهم عنوة أثناء الاحتفال. فنجحت هذه الطريقة وتزوج جميع رجاله ولما عاد أقارب المسبيات لاستخلاص نسائهم وبناتهم ووقع القتال بين الطرفين توسطت النسوة بين أزواجهن الرومانيين وأقاربهن ومنعن القتال وأصلحن ذات بينهم وبذلك زالت الكراهة والبغضاء من بينهم وساد الاتفاق وأخذت رومة تخطو في سبيل التقدم بسرعة غريبة حتى سعي مجاوروها الى محالفتها وتعاهد (تيتوس) ملك السابيين مع رمولوس على محاربة أعدائهم

ويروى أن احدى الرومانيات واسمها (نزيا) لما رأت السابيين مقبلين أثناء الحرب وبأيديهم اليمنى أساور من ذهب عرضت عليهم أن تفتح لهم أحد الابواب اذا أعطوها ما بأيديهم اليمنى فقبلوا وبعد ان فتحت لهم الباب القوا عليها الدرق الحديد الذي كان بأيديهم فماتت فريسة خيانتها لوطنها ويغلب على الظن ان هذه الحادثة موضوعة اظهارا لبشاعة خيانة الوطن وان العدو الغالب يلفظ خائن وطنه لفظ النواة بعد ان يستعمله آلة لنفاذ أغراضه اذ لا يركن عاقل لمن خان وطنه الذي تحض جميع الشرائع على محبته والتفاني في الدفاع عنه

هذا وبعد ذلك بخمس سنوات قتل تيتوس ملك السابين فاختاروا روملوس ملكا عليهم واتصروا باتحادهم على معاديهم من الامم المجاورة. وعلا شأن روملوس بين الاهالي حتى توجس أعيانهم خيفة منه وخشوا أن يستبد فيهم فقتلوه وأشاعوا انه صعد الى السماء على عربة الهم المريخ في وسط الرعد والبرق فصدق العموم هذه الرواية لسذاجتهم وعدوا روملوس من ضمن آلهتهم المديدة وعبدوه باسم (كويرينوس) وكان موته في سنة ٧١٥ ق م.

﴿ الملك نوما بونبليوس ﴾

لم يتفق الرومانيون والسابنيون على انتخاب خلف لروملوس واستمر هذا الشقاق مدة سنة كان الامر في خلالها لاعضاء مجلس الاعيان (سناتو) بالتتابع وأخيراً اتفقت الامتان على أن يكون حق الانتخاب للرومانيين بشرط أن لا ينتخبوا الا سابينيا فانتخب (نوما بونبليوس) وكان رجلا محباً للسلم تحصل في أيامه حروب مطلقاً بل صرف مدة حكمه الذي استمر ثلاثة وأربعين سنة في تشجيع الزراعة وتحديد الاطيان حتى لا يتنازع المتجاورون ومنع تمثيل معبوداتهم باصنام وحرم قتل ابن آدم قرباناً لهم كما كان جاريا قبلا ورتب الاحتفالات الدينية وعين وظائف الكهنة والمنجمين وأصلح نظام راهبات (فستا) اللاتي كن ينتخبن من بنات أشرف العائلات لحفظ النار المقدسة ومداومة اشعالها حتى لا تطفأ أبداً

والمحافظة على (البلاديوم) الذي أتى به (انيه) من تروادة

ولحبه فى السلم ومقته للحرب أقام معبداً (لبانوس) اله السلم تفتح أبوابه وقت الحرب وتقفل وقت السلم فلم تفتح فى أيامه مطلقاً وكان يعتقد الرومانيون أن له صديقة من الجن تدعي (ايجيري) تساعده بالافكار الصائبة وتوحى اليه بالاعمال المفيدة

وينسب اليه اصلاح السنة الشمسية التي كانت قبله من عشرة شهور فقط فضبطها وجعلها اثنى عشر شهراً تابعة لدورة الارض حول الشمس لانتظام مواعيد الزراعة ولا يعلم من تاريخه غير ذلك وتوفى سنة ٦٧٢ ق . م

وذهب بعض المؤرخين الحديثين مثل بوفور الفرنساوي ونيبور الالمانى الى أن هذا الملك لم يوجد الا فى مخيلة مؤرخي الرومان وانه لم يحكم رومة ملك بهذا الاسم بل ان اسمه يمثل فقط دور التشريع والتقنين فى أول عصر الرومانيين واستندوا فى قولهم هذا على ان اسم نوما مشتق من الكلمة اليونانية نوموس ومعناها الشرع أو القانون

وبعد وفاة نوما پومپليوس انتخب الاهالى تلوس هوستليوس ملكاً عليهم وكان بعكس سلفه محباً للحرب وشن الغارة على مجاوريه لسلب الماشية والامتعة واغتصاب الاراضى الا انه كان ميالاً لمساعدة الفقراء من الاهالى فكان يقسم عليهم أراضى القبائل التى تدور عليها رحي الحرب وأخيراً حصلت بينه وبين سكان ألبه عدة

وقائع صغيرة أصلها اختطاف بعض المواشي والتعدى على الحدود أوجبت اشهار الحرب لكن لما كانت علاقات المودة بين مدينتى رومة وألبه قديمة جداً وكانت مدينة رومة فى الاصل مستعمرة لمدينة ألبه كما سبق لم يرغب تلوس هوستليوس ايقاد نيران الحرب بين أهالي المدينتين بل ارتأى ان ينوب عن كل فريق ثلاثة أبطال يتبارزون معاً ومن يفوز مندوبوها بالفوز والنصر تكون هى الغالبة فانتخب الرومانيون ثلاثة اخوة من عائلة (هوراس) والالبيون ثلاثة من عائلة (كورياس)رفى أثناء المبارزة قتل اثنان من مندوبي رومة وبقى الثالث حافظاً لجميع قوته امام مندوبي ألبه الثلاثة الذين كانوا اتخنوا بالجراح فأخذ مندوب رومة فى العدو مظهراً الفرار امام أعدائه الثلاثة فتبعوه ولما تباعدوا عن بعضهم عاد اليهم فقتلهم الثلاثة بالتتابع وبذلك تم الظفر للرومانيين على الالبيين

ومما رواه بعض قدماء المؤرخين نقلا عن السلف ان أخت الهوراس مندوب رومة المسماة (كاميله) كانت مخطوبة لاحد مندوبى ألبه الذين قتلوا فأخذت تبكي وتنتحب على موته فغضب عليها أخوها ووبخها على البكاء وقتلها بيده ولم تمنعه المحبة الاخوية عن اتيان هذا الامر العظيم تعاليا فى حب الوطن والدفاع عنه فحكم عليه بالاعدام على هذه الجريمة لكن تجمهر الاهالي وطلبوا العفو عنه نظير خدمته لوطنه وأهله وفوزه على أعدائه فعفى عنه . ويظهر لي ان هذه الرواية من الاقاصيص الموضوعة اظهاراً لقوة حب الوطن

ووجوب تغلبه على ماعداه من الاحساسات الشريفة وتضحيته كل غال ولو كان من أقرب الناس الى الانسان فى سبيل خدمته الشريفة

ولقد اتخذ راسين الشاعر الفرنساوي المفلق هذه الحادثة موضوعا لاحدى رواياته المحزنة ترجمت الى جميع اللغات لكن لاأظن انها نقلت الي اللغة العربية للآن

وبعد ذلك تحالفت مدينتا رومة وألبه بشرط أن تكون السيادة لرومة على الاخرى لكن لم يستمر هذا التحالف الا قليلا اذ كانت ألبة تضمر العداء لرومة وتنتظر الفرصة المناسبه للحصول على الاستقلال التام. وظهر ماتكنه ألبه من العدوان فى أثناء محاربة جرت بين الرومانيين وبعض القبائل المجاورة فلم يساعد أميرها حلفائه بل تربص ينتظر نتيجة القتال حتى ان دارت الدائرة على الرومانيين انقض عليهم وساعد أعدائهم . الا أن فأله لم يصب فانتصر الرومانيون وانتقم توليوس هوستليوس من أمير ألبه بالقتل نظير تذبذبه وعدم اخلاصه وخرب مدينته فصارت أثرا بعد عين ونقل سكانها الى أحد احياء رومة واستمالهم اليه بان قبل اشرافهم فى مجلس الشيوخ واغنيائهم فى زمرة الشواليه وسيأتي شرح امتيازات هذه الفئة فى موضعه

ولم تكن هذه الواقعة آخر محاربات هذا الملك بل حارب كثيرا من القبائل وانتصر عليها نصرا مبيناً فى وقائع متعددة حتى صار لرومة المقام الاسمى بين المدن المجاورة وخشيها القريب والبعيد

وينسب للملك المذكور عدم الاعتناء بامور دينه وعدم اتباع أوامره واجتناب نواهيه واهمال عبادة الاصنام المعتبرة لدى قومه ولذلك يدعى الرواة انه استحق غضب معبوداته فانزلت عليه الصواعق المحرقة اهلكته ودمرت قصره تدميرا ولم يوقف لجثته على اثر وكان اختفائه او موته فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد

﴿ الملك أنكوس مارسيوس ﴾

وولي بعده (انكوس مرسيوس) ويقال انه حفيد نوما بومپليوس ثاني ملوك الرومان وكان مثل جده ميالا للسلم محبا للسكينة التى تساعد على تقدم أسباب العمران ونمو الزراعه والصناعة فنشط الزراعة ونقش القوانين المعمول بها على ألواح وعلقها فى محل اجتماع الاهالى المسمى بالفوروم وأعاد ما اختل من نظام عبادتهم فى عهد سالفه وشدد فى مراعاة قواعده لتحققه ان الدين مهما كان فاسداً ضرورى لكبح جماح الاهالى ومنعهم عن الاخلال بالراحة العمومية لامره باطاعة ولاة الامور والرضوخ لاوامرهم

لكن لم يمنعه حبه للسلم من الحرب والقتال خصوصاً مع اللاتين الذين نكثوا المواثيق وخانوا العهود فاضطر لمحاربتهم واقماعهم

بعد قتال عنيف ولما فاز عليهم بالنصر المبين دمر أربعة من مدائنهم ونقل سكانها الى رومة وأسكنهم على مرتفع (افانتان) فاتسعت المدينة اتساعا عظيما وأقام أول جسر (كوبرى) على نهر التبر وحفر مينا (اوستيه) لتسهيل التجارة ونقل البضائع الي رومة فاتسع العمار وكثرت المساكن على الشاطىء الايمن والتزم (انكوس) ان يقيم حصنا منيعا على مرتفع (جانيكول) لحماية الجسر وصد غارات العدو عنه وخدّ خندقا عميقا لمنع كل عدو مهاجم يحيط بجميع المساكن القائمة على الشاطىء الايمن ولما كثرت اهالى المدينة بسبب اقامة الالبيين وسكان مدائن اللاتين الاربع وكثر ارتكاب الجرائم وتعدد التعدي على الاموال والارواح بسبب اختلاف الاجناس واختلاطهم انشأ (انكوس) سجنا تحت الفورم لمرتكبي الجرائم الكبيرة وبالاختصار نمت المدينة وارتقت فى ايامه وعلا شأنها وأشتهر اسمها وتوفى سنة ٦١٦ قبل المسيح

الملك تركان الاول

وفى مدة ملكه اتى المدينة رجل اجنبى من اهالى (كورنثه) ببلاد اليونان هجر اوطانه وترك خلانه مع ابيه (ديمارات) هربا من استبداد عائلة (سيپسيلوس) واستوطن مدينة (تَركُينِيَه) احدى مدائن الاتروسك ثم ارتحل عنها الى مدينة رومة واشتهر ذكائه وقوة دهائه استمال اليه الملك انكوس والامة الرومانية حتى جعله الملك وصيا على أولاده من بعده وانتخبه الاهالى ملكا عليهم بعد وفاته واشتهر في التاريخ باسم (تركان) نسبة للبلد التى أتى منها الى رومة ولقب بالقديم وفى أيامه ازدادت رومة بهجة وبهاء وحسنا وروآجفف أرض (الفورم) حيث كانت تغمره مياه التبر أيام فيضانه وطغيانه واحاطه باروقة جميلة على اعمدة ظريفة وخصصه لاجتماعات الاهالى العمومية سياسية كانت أو مختصة بالاعياد وأوقات الملاهي . وأحاط المدينة على اتساعها بسور منيع من الحجر الصلد ادخل ضمنه جميع المباني الحديثة لتكون فى أمن من كل طارئ وابتدأ فى بناء (الكابيتول) [1] ومهد أرض المحل المعد للالعاب

---

(١) قلعة عظيمة اقيمت على مرتفع عال لحماية المدينة وكان بها معبد للمشتري أكبر الهة القوم ويقال ان اسمه مشتق من كلمة (CAPUT) ومعناها الراس اطلق عليها بسبب وجود رأس انسان فى احد جدرانه عند الاحتفال بوضع أساسه

الرياضية على اختلاف انواعها (سرك) وغير ذلك من الاعمال الجسيمة ذات المنفعة العامة خصوصاً المجارى العظيمة التي بناها تحت المدينة لتصريف اقذارها والباقية آثارها الى الآن تشهد لبانيها بعلو المدارك وارتفاع الشان

ولقد استعان على تتميم هذه الاعمال العظيمة بما أخذه فى حروبه العديدة مع السابين واللاتين من الاموال الطائلة والغنائم الهائلة وتغلب أيضاً على أمة (الاتروسك) التي كانت أرقي من الامة الرومانية في سلم التمدن ولما كانت القاعدة التاريخية ان الامة الغالبة تتعود بعوائد الامة المغلوبة وتتخلق باخلاقها اذا كانت أرقى منها حضارة وارفع تمدنا اقتبس الرومانيون من الاتروسك عوائد كثيرة منها المواكب الانتصارية التى كان يحتفل بها عند عودة الملك الى المدينة عقب انتصاره على الاعداء فكان يدخل المدينة لابساً الحلة الارجوانية والنجوم مزركشة عليها راكبا عربة تجرها أربعة من الخيول البيضاء يتقدمه حملة البلط المربوطة حول يدها العصى علامة على السلطة والقوة . وبعدان حكم نحو أربعين سنة تآمر أولاد أنكوس الملك السابق على قتله انتقاما منه على اختلاسه الملك فاوعزوا الى اثنين من الرعاة بالتظاهر بالمشاجرة قريباً من قصر الملك حين وجوده به حتى اذا استدعاهما امامه قتلاه وقد تم الامر كما اتفقا عليه واراداه وضرب أحدهما الملك بآلة قاطعة قاتلة فشج رأسه ومات لحينه

﴿ الملك سرفيوس تليوس ﴾

لكن أخفت امرأته (تناكويلا) التي كانت مشهورة بالسياسة والدهاء خبر موته واذاعت ان الملك جريح فقط وحالته ليست خطرة وانه كلف صهره (سرفيوس تليوس) بادارة مهام الحكومة ريثما يتم شفاؤه . وبعد مضى بضعة أيام على هذه الحادثة استمالت في خلالها أعضاء السناتو الى قبول صهرها بصفة ملك اعلنت وفاة زوجها ولم تفد تلك المكيدة أولاد الملك (انكوس) شيئاً وكان ذلك سنة ٥٧٨ ق . م . تقريباً

ومما ينسب عمله الى تركان من الاصلاحات انه قرر بقبول مائة شخص من عامة الاهالي في مجلس السناتو وزيادة زمرة الشفالية ثلاث فرق ولما لامته الاشراف على ذلك استعان على اقناعهم بقوة المنجمين الذين قالوا ان الآلهة راضية عن هذا الاصلاح فامتثل الاشراف وصارت اقوال المنجمين أكبر عضد للحكومة لتنفيذ مشروعاتها كلما أنست معارضة من بعض طبقات الامة هذا

اما (سرفيوس تليوس) فلم يعلم أصله بالتحقيق فقال بعضهم انه لقيط تربى في السراي الملوكية في مهد العز والدلال ولما ترعرع وكلت تربيته الى خول ذاك العصر ولما بلغ سن الرجولية زوجه الملك ابنته اجابة لرغبة زوجته (تناكويلا) وقال آخرون وخصوصاً

مؤرخو (التسكان) انه أتروسكي الاصل واسمه (مسترنا) وانه كان مرافقاً لاحد قواد جيوش الاتروسك عند محاربة الرومانيين ولما غلبت جيوشهم أتي الى رومية مع من هاجر من الاتروسك وترك اسمه الاصلى وتسمى باسم سرڤيوس وهو من أسماء الرومانيين حتى يظن انه روماني ولا يعلم أصله الاجنبي وقيل غير ذلك

ومن أعماله تجديد أسوار المدينة وادخال كثير من ضواحيها داخل أسوارها وتقسيمها الى أربعة أقسام لكل منها حاكم مخصوص يناط به تحضير القوائم بأسماء الاهالي القاطنين فى دائرته لتوزيع الضرائب وطلب من يلزم من الشبان للخدمة العسكرية ثم قسم جميع الاراضى التابعة لمدينة رومة الى ٢٦ قسماً وجميع السكان الى ستة طبقات و (١٧٣) فرقة أو قبيلة كل قبيلة منها مؤلفة من مائة نفس الامر الذي يستنتج منه ان عدد الاهالي التابعين لرومة بلغ في أيامه (١٩٣٠٠) نسمة وسيأتي ذكر ذلك مفصلا في الباب التالي

ومن أعماله الخارجية تحالفه مع ثلاثين مدينة من مدائن اللاتين واقامة معبد للمعبودة (ديانة) احدى آلهة الاقدمين بداخل رومة وتقاسمت المدينة ومحالفيها من مدائن اللاتين ما صرف عليه ليكون رابطة اتحاد بينها. ومنها تغلبه على بعض قبائل الاتروسك وأخذه أراضيهم وتوزيعها على الفقراء من الرومان ولما كانت جميع أعماله في صالح الطبقات السفلى من الاهالي غضب منه الاشراف ذوى الثروة والجاه وضاعف غضبهم وحنقهم عليه توزيعه الاراضى على الفقراء

وصاروا يمقتون بقائه ملكاً عليهم وتآمروا على قتله بمساعدة بنته (توليه)

وتفصيل ذلك انه كان لسرڤيوس ابنتان احداهما توليه التي حفظ التاريخ اسمها وكانت ميالة الى الفتن والدسائس وحب العلو والارتقاء مهما كانت الواسطة وتزوجت (آرنس) بن الملك تركان القديم وكان متصفاً بالسكون وسهولة الاخلاق وتزوجت الاخرى بلوسيوس أخ آرانس الذي كان على عكس أخيه ونقيضه ولما كان شبيه الشيء منجذب اليه بالطبع اتفقت (توليه) مع لوسيوس زوج أختها على قتل زوجها وأختها والاقتران معاً والسعي بعد ذلك في تنصيب لوسيوس ملكاً على رومة مكان أبيها ولو أدي الامر الى قتله وفعلا اقترنت بلوسيوس بعد ان تخلصت من زوجها وأختها بتقديمها لهما السم في الدسم ثم اتحدت مع بعض الاشراف المعادين لابيها الملك بسبب منحه بعض الحرية للاهالي وتوزيعه أراضي القبائل المغلوبة عليهم بدل توزيعها على الاشراف واتفقوا على عزله وتولية لوسيوس مكانه وبعد تمام الاتفاق وتوثيقه بالايمان المغلظة انتهز المتامرون فرصة وجود الاهالى فى اشغالهم الزراعية خارج المدينة وحضر لوسيوس الى السناتو حال انعقاده متشحا بالملابس الملوكية وألقى سرڤيوس من أعلى الدرج فقتله اعوانه ونودى بلوسيوس ملكا باسم تركان الثانى ويقال ان زوجته (توليه) حين أتت لتهنئته مرت بعربتها على جثة ابيها وكان ذلك فى سنة ٥٣٤ ق.م.

ولقد دعى الرومانيون الطريق الذي مرت منه هذه الغادرة عندارتكابها هذا الامر الفظيع بطريق الخيانة اظهارا لعدم استحسانها له وعدم مشاركتها لها فيه

الملك تركان الثاني

وكان تركان الثانى ميالا للكبرياء والجبروت محباً للظلم والاضطهاد فابطل جميع الاصلاحات التى أدخلها سرفيوس وسلب طبقة العوام ما منحته من الحقوق فرجعت الي ما كانت عليه من الضعة والانحطاط ولذلك لقبه الاهالى بالشامخ وأظهروا له الجفاء والاعراض فاتخذ لنفسه حرسا من الاجانب استخدمهم لقمع الاهالى واطفاء كل حركة تبدو منهم طلباً للحرية والتلخص من حكمه الجائر

وكان يقتل كل من آنس منه عدم الاخلاص له والرضا عن اعماله من الاعيان واعضاء مجلس الشيوخ واتبع هواه فى جميع اعماله ولم يراع لقانون حرمة ولم يخفر لاحد ذمة وسخر الاهالى فى اشغاله الخصوصية والمنافع العمومية فتمم مجارى المدينة والكابيتول وباقي ماشرع فيه والده من الاعمال وتحالف مع حاكم مدينة (تسكولم) وزوجه ابنته ليكون له عونا وعضدا ضد رعاياه ويقال

ان العملة عثروا عند فتح أساسات (الكابيتول) على رأس انسان فقال المنجمون ان ذلك يدل على ان مدينة رومة ستكون ذات شأن عظيم فى العالم وتكون مقر حكومة يمتد سلطانها على جميع انحاء العالم المتمدن

وفى عصر هذا الملك حضرت الى المدينة احدى المتكهنات المدعيات معرفة الغيب وقدمت له تسعه مجلدات مدعية انها تحتوى على بيان كل ما يستحدث لمدينة رومة من الحوادث وطلبت منه فى مقابلتها مبلغاً عظيما فرفض فاحرقت ثلاثة منها وعرضت عليه الستة الباقية بنفس القيمة فرفض ثانياً فحرقت ثلاثة أخرى وعرضت عليه الثلاثة الباقية بالقيمة نفسها فقبل ووضعها في خزانة خصوصية بنيت لها تحت الكابيتول وعين لحراستها اثنين من الاشراف وهذه الخرافة تشبه مايدعيه البعض في زمننا هذا زمن البدع والغرائب من وجود كتب يسمونها (الجفر) يقولون انها تنبي بالمستقبل ويصدقهم بسطاء العقول وصغار الاحلام

ومن اعمال تاركان الشامخ انه حارب كثيرا من مجاوريه وانتصر عليهم خصوصاً قبائل (الفولسك) وشدد ربط الاتحاد مع مدائن اللاتين وجعل لرومة وبعبارة اخرى لنفسه سيطرة شديدة عليها وفتح مدينة (جانس) بواسطة اكبر أولاده (تاركان سكستوس) وذلك انه تظاهر بالعصيان على والده واحتمى بهذه المدينة واقام بها حتى استمال فى خلالها الاهالى بحسن المعاملة وبذل العطايا حتى اختاروه

حاكما عليهم ولما تم له الامر ارسل لوالده يسأله عما يفعله لتوطيد سلطته وتسليم المدينة اليه فوجد الرسول والده يتمشى فى بستان وبعد ان سمع ما كلف بتبليغه اياه اخذ يقطع الازهار المرتفعة عما جاورها بعصاة كانت بيده ثم قال للرسول عليك بتبليغ مارأيت لولدى فان فيه الجواب الكافى والرأى السديد

ولما نقل حديث هذا الدور التمثيلى الى سكستوس ادرك ان والده ينصحه بقتل أعيان المدينة وكل من يظن فيه المعارضة فامر بقتلهم وسلم المدينة لوالده غنيمة باررة

وكان تاركان فظا غليظاً سيء الخلق ظالما مستبدا لا يوقر كبيرا ولا يرحم صغيرا ولا يحترم اموال الامة ولا ارآء نوابها وشيوخها فنفر منه الاهالى ولم تبق لهم طاقة على احتمال هذه المعاملة وصاروا يترقبون الفرص المناسبة للتخلص منه ولا يتركون طريقة لبث شكواهم واظهار تململهم وزاد غيظهم منه ومقتهم له حين تطاول ابنه سكستوس الى اغتصاب (لوكريسيا) زوجة تركان كوللاتان ابن أخ الملك فساعده الاهالى على الانتقام منه وطرد الملك تركان الشامخ واسقاط الحكومة الملكية وتأسيس الحكومة الجمهورية

﴿ القسم الثاني ﴾

« الحكومة الجمهورية »

وتفصيل ذلك على ماجاء في كتب أشهر المؤرخين ان (تاركان) كان يحاصر مدينة (اردیا) عاصمة قبيلة (الروتول) الواقعة على بعد ثلاثين كيلو مترا من مدينة رومة ومعه اولاده وكثير من الامراء وبينما كان الامراء مجتمعين ذات ليلة فى السمر اذ دارت المناقشة بينهم فى صفات زوجاتهم واخذ كل منهم يعدد محاسن زوجته المادية والادبية ويدعى انها تفوق زوجات الباقين فى الشؤون المنزلية والترتيبات العائلية ثم اتفقوا على ان يفاجئوهن فى مخادعهن ليروا كيف يصرفن أوقاتهن فقاموا لوقتهم وفاجئوهن فوجدوهن مشتغلات بالملاهي والمغانى الا (لوكريسيا) زوجة (تاركان كوللاتان) فانها وجدت مشتغلة بالغزل مع خادمتها فاجمع الحضور على انها اعقل الاميرات واكثرهن التفاتا الي اشغال بيتها فاغتاظ (سكستوس) واضمر لها السوء وتربص لها حتى اذا وجدها بمعزل عن عيون الرقباء انقض عليها كالعقاب واغتصبها كرها فجمعت زوجها واباها واخ زوجها (بروتوس) وغيرهم وقصت عليهم ما حصل لها من الاهانة تفصيلا ثم قالت ان لا حياة لها فى هذا العالم بعد ما لحقها

من العار بفعل هذا الوحش الكاسر واستلت خنجراً وطعنت نفسها به طعنة كانت القاضية فقضت نحبها شهيدة العفاف موصية زوجها بالاخذ بثارها

فحمل زوجها جثتها الى رومة وعرضها على اعضاء مجلس الشيوخ وانظار الامة طالباً منهم الانتقام للشهامة والعفاف من اصحاب الغدر والخيانة فمالوا لجانبه واتحدوا على عزل الملك وطرده هو وولديه من المدينة تخلصاً من ظلمه واستبداده الذي اثقل كاهل الاهالى بالضرائب والمغارم وحملهم مالا طاقة لهم على حمله من انواع التسخير والاستعباد فاجتمع مجلس الشيوخ (سناتو) وقرر بابطال الحكومة الملكية ونفى الملك

وفى اثناء ذلك قصد (بروتوس) الجيش المحاصر لمدينة (اردیا) واهاجه على الملك فشق العساكر عصا الطاعة وتركوا حصار المدينة ولما بلغ تاركان خبر ثورة الاهالى عاد مسرعا الى مدينة رومة فوجد أبوابها مؤصدة فى وجهه ولما اعيته الحيل ولم يجد له بين الاهالى نصيراً بل وجد الكل ضده يداً واحدة وقالبأواحذاطلباللحرية والاستقلال التجأ الى مدينة (سيره) هو وولداه آرنس وسكستوس سبب جميع المصائب التى لحقت بهم

وبعد ذلك طلب الاهالى الرجوع الى القوانين العادلة التى وضعها سرفيوس تلليوس وان ينتخب لادارة شؤون الحكومة اثنان من المشهود لهم بالحكمة والاستقامة ويعطى لهم لقب (قنصل) فقبل مجلس

الشيوخ بهذه الطلبات العادلة واجتمعت لجان الانتخاب وانتخب تركان كوللاتان وبروتوس وتم هذا الانقلاب العظيم فى سنة ٥١٠ ق . م . ثم توجس الاهالى خيفة من تاركان كوللاتان وداخلهم الريب من جهته فعزلوه ونفوه خارج المدينة وانتخبوا مكانه (فالريوس)

وقد تناقل المؤرخون خرافة يعللون بها تولى (بروتوس) على منصة الاحكام بعد تاركان الشامخ قالوا ان هذا الملك لما أحس بعدم محبة الاهالي له وقلبهم له ظهر المجن أرسل ولداه الى مدينة (دلفوس) ببلاد اليونان ليستشيرا متكهنتها على ماستؤول اليه حالته فتوجها ومعهما (بروتوس) وبعد أن اديا االمأمورية سألوا الكاهنة عمن سيخلف تاركان الشامخ فى الملك فاجابتهم بان سيخلفه من يقبل أمه قبل الآخرين منهم فادرك (بروتوس) سر الجواب وسجد على الارض مقبلا اياها اذ هى أم أولاد آدم المخلوق من الطين ولذلك اخلف تاركان بعد نفيه دون ولديه

وبعد ان التجاء تركان الى مدينة (سيره) تركها قاصدا مدينة تركوينيه لعدم مساعدة اهالى الاولى له فارسلت تركوينيه ومدينة أخرى رسلا يطلبون من رومة اعادة تركان الى الملك أو بالاقل رد أملاكه وأملاك من هاجر معه اليهم . وفى اثناء المداولة في هذه الطلبات تآمر المندوبون مع بعض أولاد الاشراف الذين لم يرق فى أعينهم تمتع الاهالى بكامل حقوقهم بل كانوا يفضلون خدمة ملك ذى ابهة وعظمة على التساوى مع جميع طبقات الاهالي فى الحقوق والواجبات فاتفقوا

على اهاجة الطبقات السفلى من الاهالى على مجلس الشيوخ والزامه بقبول عودة الحكومة الملكية لكن لم يتم تصدهم ولم تفلح مؤامرتهم بسبب افشاء بعضهم للسر فقبض على المتآمرين ومن ضمنهم ولدى بروتوس نفسه وحوكموا بمقتضى قوانين البلاد فحكم عليهم بالاعدام ولم تمنع بروتوس الشفقه الوالدية من تنفيذ الحكم على ولديه بل فضل احترام القانون وحماية الوطن العزيز على تخليص ولديه الخائنين من عقاب استحقاه بغدرهما وخيانتهما

وبعد ذلك منح السناتو عشرين يوما للمهاجرين مع تركان للعودة الى رومة بحيث ان لم يعودوا فى الميعاد المذكور تضم املاكهم لجانب الامة ووزعت أطيان تركان على الاهالى فخص كل منهم سبعة أفدنة تقريباً وبذلك ازداد تعلق الاهالى بالحكومة الجمهورية وصار لا يخشى من اصغائهم لوساوس المتحزبين للملك ثانياً . وجعل السهل الواقع بين المدينة ونهر التبر الذى كان من املاك تركان الخصوصية ميدانا عمومياً تحت حماية إله الحرب وهو (المريخ) على زعمهم وسمى ميدان المريخ

ولما لم تفلح مأمورية مندوبي هاتين المدينتين جهزتا جيشا عرمرماً لاكراه الرومانيين على ارجاع الحكومة الملوكية فقابله الرومانيون خارج المدينة بثبات الاسد الذي يدافع عن عرينه والامة التي تناضل عن استقلالها وتتفاني فى الدفاع عن حريتها واقتتل الجيشان طول النهار بدون أن يتم النصر لاحدهما وانفصلا لما خيم الظلام والقى عليهم سدوله . وفى أثناء المعركة قتل بروتوس محرر

الرومانيين وآرنس أحد ولدي تاركان . ولما جن الليل خيل لاعداء رومة ان هاتفاً ينادي بينهم ان موتاهم أكثر من موتى الرومانيين فاذعروا وولوا مدبرين فعاد الجيش الروماني الى المدينة ودخل القنصل فالريوس بموكب انتصاري عظيم ولبست نساء رومة الحداد مدة سنة كاملة حزناً على بروتوس الذي دافع عن العفاف وصان الفضيلة بانتقامه للوكريسيا شهيدة الشرف والشهامة وأقيم له تمثال نصب في الكابيتول بجوار انصاب الملوك السابقين التي احترمها الرومانيون بعد الغاء الحكومة الملكية ولم ينزلوها عن منصاتها الاعتبارهم اياها بمثابة انصاف آلهة تبعاً لاعتقاداتهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة

وبعد هذه الخيبة استعان تركان على الرومانيين بصاحب مدينة (كلوزيوم) احدى مدائن الاتروسك المدعو (بورسنا) غير ناظر الى ما يجره من ويلات الحرب ومصائبه على بلاده مفضلاً الاستعانة بالاجنبي لتملك رقاب الرومانيين على أن يراهم متمتعين بالحرية والاستقلال . فشن (پورسنا) الغارة على مدينة رومة بخيله ورجله سنة ٥٠٧ ق . م . ودخلها عنوة بعد ان بذل أهلوها من ضروب الشجاعة وفنون القتال ما لم يأته قبلهم أحد لكن لم يُعد اليها ملكها تاركان الخائن بل امتلكها لنفسه ولم تُجْدِ خيانة تاركان واستعانته باعداء وطنه فتيلا . وهكذا الحال في كل زمان ومكان فكثيراً ما رأينا ونرى الملوك والامراء خصوصاً في بلاد الشرق يستعينون بالاجانب ويستدعونهم لبلادهم لاخضاع أممهم ورعاياهم اذا

هبوا مطالبين ببعض الحقوق أو الاشتراك فى ادارة بلادهم فيلبي الاجنبي دعوتهم فرحاً مستبشراً وبعد ان يقمع الاهالي ويؤيد سلطة الحاكم الجاهل المستعين بهم يقوضون أركان سلطته شيئاً فشيئاً ويستأثرون هم بالوظايف والنفوذ حتى اذا ساعدت الفرص امتلكوا البلاد غنيمة باردة وطردوا من ظن فيهم خيراً وفى ذلك عبرة لأولى الألباب

هذا ولقد ذكر (تيت ليف) (١) المؤرخ القديم عدة وقائع وان لم تكن حقيقية الا أنها تشهد بشجاعتهم واقدامهم لا فرق بين النساء والرجال فقد قال ان (هوراسيوس كوكليس) قاوم بمفرده رجال (پورسنا) وصدهم عن احد جسور التبر عند ما كانوا قاصدين عبوره لدخول رومة وقاوم مدة حتى تمكن الرومانيون من هدمه وعاد هو الى المدينة سبحاً . وقال أيضاً ان احدى الرومانيات واسمها (كاليلي) سلمت لهذا الملك بصفة رهينة فهربت لبلادها وعبرت النهر سابحة معرضة نفسها لنبال الاعداء ولم تخش الموت تخلصاً من ربقة الاجنبي وانها لما أعيدت اليه بحكم الضرورة اضطراراً أعجب پورسنا

---

(١) مؤرخ روماني ولد سنة ٥٩ قبل المسيح وتوفى فى سنة ١٩ بعد الميلاد له تآليف عديدة أهمها تاريخ للرومانيين من عهد تأسيس رومة الى أيام الامبراطور أغسطس مؤلف من ماية وأربعين جزءاً فقد أغلبها ولم يوجد منها الآن الا ٣٥ جزءاً من الاول للعاشر ومن الحادى والعشرين الي الخامس والاربعين

بثبات جاشها وقوة جنانها واخلاصها لوطنها فأطلق سراحها . وقال هذا المؤرخ فى موضع آخر ان أحد شبان الرومانيين واسمه (موسيوس شڤولا) تمكن من الوصول الى سرادق (پورسنا) أثناء حصار مدينة رومة قاصداً قتله فقتل أحد كتابه خطأ ظناً منه انه هو الملك ولما ضبط قال للملك بكل ثبات « اني عالم بما سيحل بى من العذاب والقتل لكن يوجد بالمدينة ثلاثمائة من الشبان متحالفون على قتلك » ثم وضع يده اليمنى فى النار حتى احترقت قائلاً لها « هذا جزاؤك على خطائك عدو أمتى ووطنى » وذكر حوادث أخرى غير هذه تناقلها المؤرخون اظهاراً لما وصل اليه حب الوطن والتهالك فى الدفاع عنه عند هذه الامة الحية

ولبث (پورسنا) برومة الى أن ساقه طمعه لمحاربة اللاتنيين فانهزم امامهم شر هزيمة ولم يعد له جلد على البقاء فى رومة لهياج الاهالي وتحققه من عدم قدرته على قمعهم لوهموا مطالبين باستقلالهم فأجلى عنها بسلام

لكن لم ترق هذه الحال فى أعين تركان بل كانت فيها قذي وفي فمه شجى فأهاج قبائل السابين على رومة معللا النفس بالعودة الى سابق مجده وتليدسلطانه فطوح الطيش بالسابين وهاجموا رومة لا لارجاع تاركان كما يظن كل جاهل يغتر بمساعدة الاجانب واخلاصهم وصفاء سريرتهم بل طمعاً في انتهاز هذا الشقاق لامتلاكها فخذلوا وعادوا بخسران مبين سنة ٤٩٦ ق . م

وكانت هذه الموقعة هى الحاسمة اذ قتل فيها كثير من رؤساء الفريقين فى مبارزات خصوصية كما كان الحال فى حروب الجاهلية عند العرب وقتل آخر أولاد تركان وجرح هو أيضاً جرحاً بليغاً كان سبب وفاته وبذلك ارتاحت مدينة رومة ورسخت الجمهورية فيها أي رسوخ استمرت بعده الى سنة ٢٨ ق ٠ م ٠ حين اغتصب أغسطس قيصر الحكومة لنفسه وأسس الامبراطورية الرومانية أي ان الحكومة الجمهورية مكثت برومة مدة ٤٨٢ سنة امتد سلطانها فى خلالها على جميع الاجزاء المعلومة من المسكونة في ذلك الزمان

ولقد ينسب الرومانيون انتصارهم هذا على أعدائهم الى تداخل الآلهة كما كان شأنهم فى جميع الحوادث المهمة للتأثير على عقول الاهالي فقد ذكر فى كتبهم انهم نظروا شابين جميلي الصورة مرتفعي القامة راكبين على جوادين شاهقين في البياض يحاربان في مقدمة الجنود وكانا أول من اجتاز حصون الاعداء غير مباليين بالشهب والنبال الموجهة اليهم كالمطر فتبعهما الرومانيون وتم لهم النصر بسبب شجاعتهما ولما بحث عنهما لتسليمهما المكافأت التى كانت مقررة لمن يجتاز حصون الاعداء لم يوقف لهما على أثر ثم ادعي بعضهم انهم نظروهما يغسلان أسلحتهما وملابسهما من التراب والدم فى احدى أقنية المدينة وقال الكهنة انهما ولدا المشترى أكبر آلهتهم واسمهما « كستور » و« بولوكس » ومن ذلك العهد أقيم لهما معبد فى الفورم وخصص

لهما يوم يحتفل فيه بتذكار مساعدتهم للرومانيين فى كل سنة واتخذهما الشفالية الرومانيون حماة لطائفتهم

نظامات الرومانيين الاولى

وحيث وصلنا الى تأسيس الجمهورية وشرحنا الحوادث التي أدت الى سقوط الملوكية بالتفصيل مع ذكر خرافات القوم وأوهامهم رأيت قبل الشروع في بيان تاريخ الجمهورية ان آتي على شرح وجيز لترتيباتهم الداخلية ونظاماتهم العمومية مع ذكر بعض عوائدهم المنزلية والعائلية ليكون القارئ على بينة من جميع أمورهم وليقف وقوفاً تاماً على كافة أحوالهم واليك أيها القارئ بيان ذلك

ان أول نظام وضعه روملوس لاهالي رومة هو ان قسمهم ثلاث فرق أوقبائل الاولى مؤلفة من رفاقه الاصليين الذين ساعدوه على تأسيس المدينة. والثانية من رجال تيتوس ملك السابين الذي عاهد روملوس بعد القتال الذى وقع بينهما عقب اختطاف بنات السابين وسبق ذكره فى موضعه. والثالثة قيل انها مؤلفة من رجال أحد أمراء الاتروسك واسمه (لوكومون) أتى الى رومة لمساعدة روملوس على بناء المدينة لكن عدم تمتع رجال هذا القسم ببعض

امتيازات القسمين الاولين وعدم وجود نواب عنهم فى مجلس السناتو الذي سيأتي الكلام عليه حمل بعض المؤرخين على الظن بأنه كان مكوناً من سكان رومة الاصليين الذين أتى روملوس فى أول الامر وأقام بين ظهرانيهم عنوة وهذا الرأي هو الاقرب للصواب وبقي هذا القسم فى هذه الدرجة المنحطة الى عهد تاركان فمنحه المساواة مع القسمين الآخرين في جميع الحقوق والواجبات. وكان لكل قسم أو قبيلة رئيس يلقب (تريبون) وكل قسم ينقسم الى عشرة أقسام مؤلف كل منها من ماية نفس ويسمى القسم المائيني ورئيسه يلقب (سانتوريون) أي رئيس المائة وكل قسم مائيني ينقسم الى عشرة أقسام مؤلف كل منها من عشرة أنفس ويسمى القسم العشرى ويلقب رئيسه (ديكوريون) اى رئيس العشرة

ومن جهة أخرى كان يوجد بكل قسم من الاقسام الثلاثة الاصلية أقسام ثانية تسمى (جنتس) أى عشائر أو أجناس كانت كل واحدة منها مؤلفة من أعضاء العائلة التي تربطهم روابط النسب والمصاهرة وممن ارتبط معها بروابط أخرى اجتماعية مثل رابطة التوارث لومات رئيس العائلة عن غير وارث ولم يترك وصية ويمكننا ان نسمى أعضاء هذا الفريق الثانى بالاتباع فأعضاء العائلة المرتبطين معها برابطة النسب كانوا هم المتمتعين بجميع الحقوق المدنية والسياسية ومنهم تكوّن طبقة الاشراف أو الاسياد دون أعضاء الفريق الثاني (الاتباع) الذين كانوا يفضلون الالتصاق باحدى هذه

العائلات بالتبعية ليأمنوا شر حوادث الزمان وليكونوا فى راحة بال ورغد من العيش متنازلين عن حقوقهم المدنية فى نظير هذه الحماية فكان السيد أو المتبوع يعطى لكل تابع من أتباعه قطعة من الارض ليتعيش منها ويساعده فيما يكون له أو عليه من القضايا وبعبارة وجيزة يعامله كما لو كان ولده أما التابع فكان يجب عليه أن يتسمى باسم العائلة التابع لها ويساعد متبوعه على دفع الفدية لو أخذ أسيراً في الحرب وفي دفع مايحكم به عليه من الغرامات وفي أمهار بناته وبالاختصار في جميع شؤونه ومصارفه العمومية والخصوصية ولا يجوز له أن يساعد أو يعاون أحداً ضد متبوعه السياسي ولا يجوز للتابع أو المتبوع أن يشهدا ضد بعضهما امام المحاكم أو يرفعا قضايا على بعضهما الى غير ذلك من الحقوق والواجبات المفصلة فى كتب القوم وأسفارهم ولما امتدت فتوحات الرومانيين فى عهد الجمهورية كما سيجئ امتد ظل هذه التابعية الى أمم بأجمعها ومدن بجميع سكانها وساعدت هذه الطريقة على استعمار نيران الحروب الداخلية اذ كان كل سيد يدعى الرئاسة لنفسه ويستعين بمتبوعيه الذين لايجدون مفراً من مساعدته

وكان الاشراف يجتمعون بهيئة جمعيه عموميه (كومسيو) للنظر فى الشؤون المهمة وتقريرها بأغلبية الآراء وذلك كوضع الشرائع وتقنين القوانين واشهار الحرب وابرام الصلح والتعيين في الوظايف العمومية الرئيسية مدنية كانت أو دينية أما الاشغال العادية

فكانت تنظر فى مجلس (السناتو) وهـذا المجلس كان بمثابة جمعية استشارية لرئيس الحكومة الاعلى وهو الملك وكان يؤلف السناتو اولاً من رؤساء العائلات السياسية فقط ثم تغيرت كيفية تشكيله فيما بعد كما سيذكر فى موضعه وكان عدد اعضائه اولا مائة شخص ثم وصل مايتين بعـد انضمام السابين الى الرومانيين واخيراً ثلاثمائة فى عهد تاركان وبالاختصار كانت الحكومة مشكلة بالكيفية الآتية

(اولاً) الملك وهو الرئيس الاعلى وكان يجمع فى شخصه اكبر وظيفة دينيـة اذ كان يعتبر بمثابة رئيس دينى كامبراطور الروسيا وملكة الانكليز الآن واكبر وظيفة فى الجيش حيث كان قائده العام واعلى وظيفة قضائية (ثانياً) السناتو للنظر فى الامور العادية والفصل فيها (ثالثاً) الجمعية العمومية المؤلفـة من جميع الاشراف (كوميسيوم) للنظر فى المسائل المهمة التى لها تأثير شديد على نظام الحكومة . وكان الملك يجلس كل تسـعة أيام للحكم فيما يرفع اليـه من القضايا لكن لم يكن حكمه نهائياً بل كان قابلا للاستئناف امام الجمعية العموميـة ولما كانت لا تسمح له اشغاله بنظر القضايا بنفسه كان يعين قاضيين يصدران الاحكام باسمه . وفى حالة الحرب تكون سلطة الملك مطلقة اطلاقا كلياً خارج اسوار المدينة فقط . وهو الذى كان يعين اعضاء السناتو ويدعوهم للاجتماع فى الاوقات المعينـة كما يدعو الجمعية العمومية لعقد اجتماعاتها وكان له حرس خصوصى مؤلف من ثلثمائة فارس (شواليـه) ينتخبون من اكثر الاهالى ثروة

واعزهم جاها وكانوا هم القوة الراكبة اى السوارى اثناء الحرب وكان ينتدب فى غيابه احد اعضاء السناتو للقيام بمهام وظيفته واخيرا كانت الامور المالية وجباية الاموال مناطة بموظفين مخصوصين من اختصاصاتهم الحكم فى مسائل التعدى على الانفس او الاموال فيرى القارئ من هذا الترتيب ان هذه الامة بلغت مع حداثتها شأوا عظيما من حسن الانتظام وتمام الترتيب وكانت حكومتها جمهورية تقريباً حيث لم يكن للملك فيها سلطة استبدادية بل كان الملك كملوك اوروبا المقيدين الآن بنظامات عمومية كملك ايطاليا وملكة الانكليز وغيرهما ولو لا تجاوز تركان الشامخ حدوده وعدم احترامه للدستور ونبذه ارآء السناتو ظهريا لما سقطت الحكومة الملكية واستبدلت بالحكومة الجمهورية البحتة

ثم تأتي طبقة العوام المؤلفة من الامم التى اخضعها الرومانيون والزموهم بالاقامة حول المدينة والاخلاط الذين اتوا اليها للاحتماء بها وهذه الطبقة كانت مجردة من جميع الحقوق المدنية والسياسية كالانتخاب والتبنى والوصية بعد الموت وغير ذلك من الحقوق التى كانت مخولة للرومانيين وكان لا يجوز لهؤلاء العوام الدخول فى العائلات الشريفة اوالارتباط معها بالمصاهرة الا انهم كانوا من جهة اخرى احرارا في تصرفاتهم لايخضعون لاحكام السناتو او الجمعية العمومية بل كانوا تابعين للملك رأسا وينتخبون قضاة من بينهم للفصل فى قضاياهم الخصوصية وكانت اهم اشغالهم الزراعة والتجارة لعدم

اشتغالهم بالامور السياسية وتفرغهم لاعمالهم الخصوصية. واستمرت هذه الطبقة من الاهالى فى هذه الحالة من العزلة والانحطاط السياسى حتى خولت لها جميع الحقوق الرومانيه فى عهد الملك (سرفيوس) وصاروا كباقي الرومانيين لهم مالهم وعليهم ماعليهم

وقد فعل ذلك لما آنس الكراهة والبغضاء من الاشراف فاراد اضعاف سطوتهم وتقليل نفوذهم بجمع اهالى هذه الطبقات السفلى النازلة خارج المدينة وانزلهم على مرتفع (افانتان) داخل اسوارها ومنحهم الحقوق والامتيازات ثم ابطل تقسيم الاهالى الى طبقات تبعا للحسب والشرف وقسمهم تقسيما جديدا جعل اساسه الثروة والغني وللوصول الى ذلك احصى تعداد الاهالى من اشراف وغيرهم وثروة كل فرد منهم بان يأتى كل منهم الى الموظف المنوط بذلك ويقسم انه يقول الحق ثم يملى اسمه واسم عائلته وسنه ومقدار ثروته مع ماتساويه عقاراته وكان جزآء من يرتكب غشا اوتدليسا حرمانه من حريته او مصادرته فى الاموال او قتله حسب الاحوال وقرر عمل مثل هذا الاحصاء كل خمس سنوات

ولما تم الاحصاء وعلمت درجة كل انسان من الغني او الفقر قسم الاهالى الى ست طبقات غير متساوية وخصت الطبقات العليا منها باوفر قسم من الضرائب بحيث كانت نسبة الضرائب الى الثروة تزداد من طبقة الى اعلى منها (وهذه الطريقة هى التى تسمى الآن فى علم الاقتصار السياسى بالضريبة التدريجية بمعنى ان من يكن ايراده

الف قرش مثلا يدفع واحدا فى المايه ومن بلغ ايراده عشرة آلاف قرش يدفع اثنين فى المايه وهلم جرا بكيفية منتظمة) وبهذا الترتيب الذي يدل على توقد ذهن واضعه اختلط الاشراف الاصليون بمن دخل حديثاً فى الجنسية الرومانية وتفرقت كلمة الاشراف وضعفت شوكتهم خصوصاً وقد حمل سرفيوس الطبقات العليا اكثر مصاريف الحروب وخصهم باخطر مواقع القتال

ولما كان هـذا التقسيم الجديد مبنيا على الثروة وكانت الثروة من طبيعتها قابلة للنمو والاضمحلال تبعاً لاجتهاد وخمول مالكها كان من الممكن لكل انسان الانتقال من طبقة الى أرقى بجده واجتهاده كما هو حاصل فى هـذا العصر ببلاد الانكليز حيث يعطى لقب لورد لكل من امتاز فى فن أو علم او خدم وطنه خدما جليلة او اثرى فى التجارة او غيرها فتتجدد طبقة الاشراف فى انكلترا بدخول عناصر جديدة فيها تعيد اليها ما تفقده من القوة الحيوية بتلاشى وانحلال بعض العائلات القديمة

• ومما يذكر لهذا الملك العادل من الاعمال التى تخلد له حسن الذكر وطيب الاحدوثة مدى الدهر ان ابطل العادة القديمة التى كانت تجعل المدين المعسر رقيق دائنه حتى يوفيه ما عليه وجعل حق الدائن على مال المدين ليس الا كما هو الحال الآن فى جميع شرائع الامم المتمدنة لكن لسوء حظ الرومانيين ابطل تركان الشامخ هذا القانون وأعاد الطريقة القديمة مع ما فيها من مخالفة العقل والعدل والذوق السليم

ولم يتحصل الرومانيون على ابطالها ثانياً الا بعد جهاد ونضال استمر نحو مايتي سنة وبالاختصار كانت ايامه لايام سمد ورفاهية وعدل وانصاف بما وضعه من القوانين العادلة وسنه من الشرائع التى تشهد له بعلو الادراك وكرم الاخلاق ثم لما اتي بعده تاركان الشامخ هدم ماسس وافسد مااصلح وسلب طبقة العوام جميع مامنحها سرفيوس من الحقوق والمزايا التى جعلتهم كجميع الرومانيين اعضاء جسم واحد لهم مالهم وعليهم ماعليهم وأبطل كيفية تقسيم الاهالى الى طبقات بنسبة ثروتهم واعاد النظام القديم القاضى بتقسيمهم الى اشراف وعوام فكان كالساعى الى حتفه بظلفه اذ بغضه العموم وانتهى الامر بابطال الحكومة الملوكية وتأسيس الجمهورية . لكن لم يتحصل العوام ثانياً على جميع ماسلبوه من الحقوق الا فى عدة من السنين وبعد حروب داخلية جرت فيها الدماء كالسيول فاخر تقدم رومة نحو جيلين بعمله الاستبدادى واعادة النظامات القديمة مع عدم ملائمتها للوقت

اما ديانة الرومانيين فكانت الوثنية يشوبها شئ من الصابئية ولما كثر اختلاطهم باليونانيين (الاغريق) اقتبسوا كثيراً من عوائدهم الدينية واتخذوا معبوداتهم آلهة لهم فاقاموا الهيا كل والمعابد للمريخ والمشترى والزهراء وغيرها من النجوم الثوابت والسيارة وكانوا يؤلهون القوى الطبيعية كالبحر ومواجه وجبال النار والهواء وكذلك العواطف النفسانية كالحكمة والشرف وحب الوطن والحلم والغضب وهلم جرا ويقيمون التماثيل والانصاب رمزاً لها فيعبدها

العوام بصفة الهة حقيقية والعياذ بالله

ولم يكن لهم قسوس لاقامة الصلاة وتقديم القرابين لمعبوداتهم بل كان كل رئيس عائلة يقوم بهذه الوظائف بين أفراد عائلته وكان رئيس الحكومة هو الكاهن الاكبر . ثم وجدت بعض طوائف دينية خصصت لاعمال معلومة مثل المنجمين وكهنة المعبود المريخ وغيرهم مما لايسمح لنا حجم الكتاب بتفصيله تفصيلا كافيا

وكان للرومانيين اعتقاد اكيد وتمسك شديد بالطوالع الفلكية والتفائل باقل الامور والتشائم من اصغرها فكانوا لا يقومون باى عمل خصوصى او عمومى الا بعد ان يستطلعوا اتجاه الريح وطير الطيور وتغريدها او حالة مايقدمونه من القرابين عند ذبحها من سكون او اضطراب او بعد موتها من تشنجات وحركات وحالة الامعاء ولونها ووضعها وكان الرجل لايخرج من بيته اذا عثرت قدمه او صادفه طير عن يساره الى غير ذلك من الامور التى تضحك الصبيان ولا تزال مع ذلك متأصلة فى نفوس جميع الشعوب حتى التى انتشر التعليم بين افرادها ولن تزال كذلك لميل النفس لتصديقها وانتقال الاعتقاد فيها بالوراثة حتي تتلاشى شيأفشيأ بتعميم التعليم وزوال اثارها المنطبعة فى المخيلة تدريجا

واما عوائدهم المنزلية فكان اساسها التقشف وعدم الترف والبذخ وترك الكماليات والاكتفاء بالحاجيات الضرورية وكانت معاملة رب المنزل لخادميه كمعاملته لاولاده اذكان يساعدهم فى جميع

الاعمال فكان يحرث بيده مهما كانت ثروته العقارية وكانت ربة البيت تصرف وقتها فى تدبير شؤون منزلها ومساعدة جواريها على القيام بكافة مايستلزمه وتصرف اوقات الفراغ معهن في الغزل والحياكة لكن كانت حالة المرأة فى أيامهم احط بكثير من حالتها الآن في جميع الجهات فكان لايجوز لها التصرف فى أملاكها مطلقا ولو بلغت من العمر عتيا بل كانت طول حياتها فى حالة الحجر تحت وصاية ابيها ثم زوجها ثم اكبر ابنائها فاخيها فابن اخيها الخ على حسب ترتيب معلوم . وكان لرب العائلة الحق المطلق في مجازاة اولاده وامراته بجميع العقوبات البدنية حتى القتل بدون ان يسأل عن سببه اذ كان الكل لديه كالانعام او اقل قدراً ولا يصير الولد حرامهما بلغ من العمر او ترقي فى مناصب الحكومة مادام والده موجوداً فكان للوالد أن يقتل ولده ولو كان عضواً فى مجلس الشيوخ أو قائداً عاماً للجيوش كما حصل في فتنة (كتلينا) حيث قتل والد ابنه وكان عضواً فى المجلس المذكور بدون محاكمة بل بمجرد ماله عليه من الحقوق ومن غريب عوائدهم ان المدين المعسر يكون رقيقاً لدائنه كما ذكرنا ولو كان الدائنون عديدين جاز لهم بيعه واقتسام ثمنه أو قتله وتقسيم جثته

ثم تركت هذه العوائد البربرية شيئاً فشيئاً وارتقت الاخلاق العمومية تبعاً لارتقاء التمدن والعمارية مما هو مسطور ومذكور فى المطولات خصوصاً فى كتب القانون الرومانى فليرجع اليها من يريد التوسع فى هذا الموضوع.

﴿ الجمهورية فى عهد القناصل الاشراف ﴾

من سنة ٥١٠ ق ـ م الى سنة ٤٧١ ق ـ م

قد ذكرنا فيما مرّ اسباب سقوط الحكومة الملوكية وما اتاه تاركان الشامخ من الفظائع الوحشية التى أبعدت عنه قلوب الاهالى وكانت سبباً لطرده هو وعائلته من المدينة ثم شرحنا ما اتاه من الاستنجاد بالاجانب ضد رومة لاخضاعها واعادته الى مقر عرشه وكيف استولى (پورسنا) على المدينة ولبث بها مدة . ونحن ذاكرون الآن الاحتياطات التى اتخذها مجلس الشيوخ عند تأسيس الحكومة الجمهورية لمنع عودة السلطة الاستبدادية ثانياً وبقاء النفوذ في أيديهم وعدم تطرق أيدى طبقة العوام اليها اوطموح انظارهم للحصول عليها فقرروا ان ينتخب لرئاسة الحكومة اثنان من بينهم لمدة سنة واحدة ويكون لهما ما كان للملك من الحقوق والوظائف الا حق الحكم بالاعدام فيحرمون منه مادامو ا داخل اسوار المدينة اوخارجا عنها بمسافة ميل واحد ويعود لهم بعد هذه المسافة وتقرر رمزا لذلك ان لاتوضع البلط ضمن العمد التى تحمل امامهم الا بعد ابتعادهم عن المدينة بزيادة عن ميل وان تكون السلطة لكل منهما مدة شهر بالمناوبة وان من يطمح لاختلاس السلطة المطلقة

بدون حق او يسعى فى اعادة الملوكية يكون جزاؤه القتل لامحالة وان تخفض العمد التى تحمل امام القناصل عند حضورهم امام الجمعية العمومية احتراما لها واعترافا بان سلطتها فوق سلطتهما

ولزيادة ارتباط الاهالى بالجمهورية واستمالتهم اليها أضيف الى السناتو مائة عضو انتخبوا من جماعة (الشفاليه) وانتخب مكانهم مائة من أغنياء طبقة العوام ثم وزعت املاك العائلة الملوكية على الفقراء من بينهم وأبطلت الرسوم الجمركية على الحدود لتخفض اسعار الواردات الخارجية وأنزل ثمن الملح كثيراً وبذلك رسخت قدم الحكومة الجمهورية واتحد الرومانيون على الدفاع عنها وصاروا جميعاً على اختلاف طبقاتهم يداً واحدة لصد هجمات الاعداء حتى وطدوا دعائمها وصار لايخشى عليها من دسائس المفسدين ومكر الماكرين

لكن من جهة أخرى أهملت الزراعة بسبب الحروب المتواصلة وكثرت ديون الفقراء بتراكم الفوائد الفادحة حتى عجزوا عن الدفع ووقع كثيرون منهم فى حالة الرق بمقتضى القانون فتآمر المديونون المعسرون وطلبوا من الحكومة وضع حد للفوائد الزائدة والزام الدائنين بترك بعض ديونهم التى أغلبها فوائد متكاثفة فلم تصغ الحكومة لشكواهم ولم تسع فى تخفيف بلواهم لانه كان لاغلب القابضين على أزمة الاحكام ديون على الاهالى ولو لبوا ندائهم لخسروا مبالغ وافرة. ولازدياد الفقر وتفاقم الحطب امتنع الاهالى عن الخروج لمحاربة اللاتين حين أتوا لنجدة تاركان فى سنة ٤٩٦ ق — م وأبوا

القتال مالم يجب طلبهم فقررت الحكومة انتخاب حاكم مطلق موقتاً (دكتاتور) لمدة ستة شهور يتصرف فى الاحكام حسب ما تقتضيه الاحوال حتى بالقتل [1] وكلفته باكراه الاهالى على الخروج للقتال فخرجوا اضطراراً لا اختياراً وهزموا الاعداء وصدوهم عن المدينة واستعفى الحاكم المطلق ورجعت الاحكام الى ما كانت عليه وازداد الدائنون قسوة وخشونة فى معاملة مديونيهم خصوصاً سنة ٤٩٥ ق — م فى عهد قنصلية (كلوديوس اپيوس) أحد المثرين المرابين حتى اشتد الكرب على الاهالى وطلبوا ثانيا تسوية ديونهم وعززوا طلبهم بالامتناع عن محاربة الفولسك حين تعدوا حدود رومة فى هذه السنة وغزوا بعض احيائها فوعدهم القنصل الثانى سرفليوس بالنظر فى طلبهم بعد انتهاء الحرب وأمر بالكف عن المطالبة مدة الحرب واخلا سبيل المسجونين بسبب ديونهم موقتا حتى تضع الحرب اوزارها. لكن لم يصدق السناتو بعد انتهاء الحرب على هذه الوعود بل ساعد المثرين على الفقراء فى تحصيل ديونهم فامتنعت الجنود عن الحرب مرة ثالثة ولم يخرجوا الا بعد ان وعدهم القنصل (منيوس فالريوس) الذى كان من احدى العائلات الوضيعة وتثق الاهالى به وثوقاً تاماً بتنفيذ جميع مطالبهم وعزز وعده بالايمان المغلظة الا ان السناتو لم يؤيد هذه الوعود لوجود الاغلبية فيه بين

(١) هذه الطريقة تشبه المتبع الآن من وضع بعض الجهات تحت الاحكام العرفية أو العسكرية وايقاف سير المحاكم العادية موقتا

ايدى اصحاب الديون فاستغنى فالريوس واهاج الشعب لنوال حقوقه بالثورة حيث ان جميع الطرق السلمية لم تصادف الا وعوداً عرقوبية مبنية على اطماع اشعبية. فثار الاهالى فى سنة ٤٩٣ق - م واجتمع بعضهم على الجبل المقدس خارج المدينة والبعض على جبل افنتان داخلها فارسل اليهم السناتو وفداً لينصحهم بالخلود الى الراحة والسكينة مؤكدا لهم ترك ديون المعسرين واطلاق سبيل جميع المستعبدين بسبب عدم دفع ديونهم وكان من ضمن الوفد رجل مشهور بالفصاحة يدعى (منيوس أجريبا) فخطب فيهم وحثهم على الأئتلاف ونبذ الثورة وضرب لهم مثلا « ان اعضاء الانسان تآمرت ذات يوم على ترك العمل وعدم تغذية المعدة قولا انه ليس من العدل ان تشتغل جميع الاعضاء لمنفعة عضو واحد فلما منع الغذاء عن المعدة ضعفت وامتد الضعف الى الاعضاء المتآمرة وعاد اعتصابها عليها بالضرر اكثر من المعدة نفسها »

لكن لم تؤثر هذه الوعود ولا هاتيك المواعظ فى المتآمرين لعدم الوفاء فى الماضى بل طلبوا ضمانة على تنفيذها ان ينتخبوا نوابا للدفاع عنهم وان لا تنفذ الاحكام ضد من يتضح عدم اقتداره على الدفع فقبل السناتو هذا الطلب مكرها بعد تعديله بان يكون حق الانتخاب للجيش فقط لتأثير الاشراف عليه وقلة عدده بالنسبة لمجموع الاهالى فانتخب الجيش نائبين عن الاهالى اعطى لهما لقب (تريبان) ثم زيد عددهم الى خمسة فى سنة ٣٩٣

وكان لانتخابهم نتائج عظمى بالنسبة للاهالى اهمها استقلالهم عن القنصلين مما يقضى باضعاف سلطتهما بقدر ما يعطى منها للتريبان ومساعدتهم الاهالى على عدم تنفيذ احكام القناصل المجحفة بحقوق الفقراء والمعسرين . وجعلت سلطتهم داخل مدينة رومة فقط وعلى مسافة ميل واحد خارجا عنها وفى سنة ٤٨٦ انتخب سبوريوس كاسيوس قنصلا وكان سبق انتخابه مرتين لهذا المنصب السامى وذلك ليله لمساعدة الاهالى ضد الاشراف المرابين ولما كان جل سعيه تخفيف اثقال الفقراء عرض على مجلس السناتو تقسيم اراضى الحكومة بينهم والتشديد على الاغنياء فى دفع الضرائب ودفع راتب معين للجنود مقابل ما يلزمهم من المون والاسلحة وقد كان كل جندى ملزما بالصرف على نفسه بدون تكبد الحكومة صرف اى شئ عليه فلم يسع السناتو الا التصديق على هذا المشروع الزراعى مع مافيه من الاضرار بالاغنياء القابضين على ازمة الاحكام لمجاهرة الشعب باستحسانه واظهار الرغبة الشديدة فى تنفيذه فصادق المجلس عليه مصرا على عدم تنفيذه والايقاع بواضعه فاشاعوا ان كاسيوس لم يراع صالح وطنه فى معاهدة كان ابرمها فى قنصليته الاولى مع قبائل اللاتين ووافقت عليها قبائل (الهرنيك) وانه فضل صوالح الاجانب بغية الاستعانة بهم على اذلال رومة واسقاط الجمهورية واعادة السلطة الملوكية فيها لنفسه وانه يسعى الآن فى ايقاع الشحناء بين الاغنياء والفقراء من الاهالى للتفريق بينهم والتمكن من تنفيذ مقصده الحقيقى وهو الاستئثار

بالحكم والاستبداد بالملك

ولما كان الشعب الرومانى شديد الغيرة على استقلاله والمحافظة على حريته صدق هذه الوشايات ومال عنه فانتهز السناتو هذه الفرصة المناسبة واتهمه بالسعى فى اعادة الحكومة الملوكية فحكم عليه بالاعدام وقتل فى اواخر سنة ٤٨٦ شهيد مساعى من يفضل الصالح الخاص على الصالح العام ولم يراع حرمة لمصلح و لم يخفر ذمة لخادم صديق لوطنه

وبعد موت كاسيوس ماطل السناتو فى تنفيذ مشروعه الذى ضحى حياته للحصول على التصديق عليه وساعدته على ذلك عائلة فابيوس الشهيرة بمعادات الاهالى ومساعدة الاشراف على اطماعهم وبقيت وظيفة القنصلية فى عائلتهم سبع سنين متوالية من سنة ٤٨٤ لغاية سنة ٤٧٨ لم يسمع فى اثنائها نداء الاهالى ولا نوابهم (التريبان) الذين بعدان اعيتهم الحيل فى الحصول على تنفيذه بالطرق السلمية عمدوا الى استعمال الحق الممنوح لهم من ايقاف تنفيذ اوامر القناصل لو رأوا انها مخالفة لصالح منتخبيهم وعارضوا فعلا فى تنفيذ قانون الخدمة العسكرية وامروا الاهالى بالامتناع عن الدخول فيها حتى يعمل بمشروع كاسيوس وتوزع عليهم الاراضى التى تقرر اعطائها لهم ولما كانت سلطتهم القانونية قاصرة على مدينة رومة وضواحيها على مسافة ميل واحد فقط نقل القنصلان مركز اعمالهم على مسافة تزيد عن الميل وامروا

بجمع انفار الجندية بالقوة وحرق مزروعات من يمتنع منهم امتثالا لاوامر نواب الاهالى فكثرت الشكوى وعلى التذمر وخيف حصول فتنة عمومية تكون عاقبتها وبالا على الجميع ولذلك استمال السناتو بعض النواب وهم اقنعوا المعارضين بضرورة المسالمة وعدم المعارضة منعا للثورة فسحبوا أمر الامتناع ونصحوا الاهالى بالدخول فى الجندية فامتثلوا الا انهم أرادوا الانتقام من عائلة فابيوس التى كانت معضدة لهذه الاضطهادات فامتنعوا عن القتال في واقعة كان قائدها أحد أعضاء هذه العائلة واسمه (سيزوفابيوس) حتى لايتم النصر ولا يكون له حق فى الاحتفال الذى يعمل للقناصل المنتصرين عند عودتهم الى المدينة

فلما رأت عائلة فابيوس ان الاهالى ناقمين عليها لمساعدتها السناتو وأعضائه وان السناتو ابتدأ يقلب لها ظهر المجن لتخوفه من نمو نفوذها بين الاشراف وبقاء الزعامة فيها من مدة

ولاعتقاد أعضائها بان الفوز لابد وان يكون فى آخر الامر للشعب على الاشراف مالت بكلياتها عن السناتو وصارت من أكبر مساعدى الشعب على تنفيذ القانون الزراعى فكانت نتيجة ذلك ان الاهالى ساعدوا القنصل فابيوس فى سنة ٤٧٩ على محاربة قبائل الاتروسك فغلبهم ومحى ما كان لحق بعائلته من العار بسبب انخذال (سيزوفابيوس) امام الاعداء

ولما عاد الجيش منصوراً الى المدينة دخلها فى موكب حافل

حسب العادة وقبل فابيوس جرحى الفقراء فى داره فزاد تعلقهم به وبعائلته لدرجة اقلقت السناتو واعضائه على امتيازاتهم واستقلالهم وزاد خوفهم وقلقهم لما طلب (سيزو) السالف الذكر تنفيذ القانون الزراعى الذى تقرر من سنة ٤٨٤ ولم يعمل به ولذلك تآمر الاشراف على اخراج هذه العائلة من رومة بدعوى انها تسعى لاعادة الملك وارهبوا الاهالي بهذا الخيال الوهمى فلم يبدو أى حركة ظاهرة للدفاع عنها كما كان ينتظر فخرجت مع اتباعها وعددهم نحو الاربعة آلاف ونزلت على ضفة نهر كراميرا الذى يصب فى نهر التبر لصد هجمات الاتروسك عن مدينة رومة اذ حافظت هذه العائلة على ولائها ولم تجد منها الا الجحود والكفران لان حب الوطن يجب ان لا تزعزعه الحوادث أو تؤثر فيه الكوارث بل يبقى هذا الاحساس حيا الى آخر رمق من الحياة

وفي سنة ٤٧٧ انقرضت هذه العائلة تقريبا فى احدى حروبها المتعددة مع القبائل بسبب عدم تحرك القنصل منليوس لنجدتها ومد يد المساعدة اليها مع وجوده معسكراً بجيشه بالقرب من محل القتال ولذلك ثار عليه الاهالى واتهموه بالخيانة وطلبوا محاكمته بصفة خائن للوطن فلم ينتظر المحاكمة بل امتنع عن الاكل حتى مات جوعا هربا من العقاب الصارم الذى استحقه بترك الاعداء يتغلبون على اخوانه الرومانيين تشفيا لضغائن شخصية يجب ان تضحى على هيكل الوطنية

واعتبر اتهام الشعب لهذا القنصل سابقة ينسج على منوالها لاتهام كل من يشتهر من القناصل بعدم مساعدته على تغيير القانون الزراعي عند انقضاء مدة انتخابه ففي سنة ٤٧٥ اتهموا القنصل سرفليوس لعدم انتصاره في موقعة حربية ولم يحكم عليه بشيء وفي سنة ٤٧٣ اتهموا مانليوس وفوريوس لمعارضتهم في تغيير القانون الزراعي وتولى اتهامهما النائب (تريبان) جنوسيوس لاشتهاره بقوة الحجة وفصاحة اللسان واقسم امام الشعب بانه لابد من الحصول على معاقبة هذين القنصلين حتى يلزم من يأتي بعدهما بتنفيذ هذا القانون لكنه وجد قتيلا في فراشه يوم المحاكمة بدسيسة الاشراف حتى لايحاكم القنصلان المتهمان ويقال انه قتل في هذه الليلة كثير من فصحاء الشعب المطالبين بحقوقه المسلوبة فوقع الرعب في قلوب الاهالي وأراد السناتو انتهاز هذه الفرصة الثمينة لتثبيت سلطته وتقريرها فامر بجمع الشعب في الفورم لانتخاب من يليق منهم للخدمة العسكرية وكاد يتم الامر بسكون لعدم معارضة أحد من الاهالي أو نوابهم لولا قيام (پوبليسيوس فوليرو) وتحريضه الاهالي على الثورة وعدم الامتثال لاوامر الحكومة مالم ترد اليهم حقوقهم المسلوبة ظلما وعدوانا فامر القناصل بالقبض عليه فهاج الشعب وخلصوه عنوة من أيدي القابضين وطردوا القناصل وأعضاء السناتو من الفورم بالقوة

وفي سنة ٤٧٢ انتخب فوليرو نائبا عن الشعب (تريبان) فبذل كل اهتمامه لانالة الشعب حقا لو تحصل عليه يكون مقدمة لحصوله

على حقوق كثيرة تنيله السلطة الحقيقية مع الوقت وتفصيل ذلك ان انتخاب نواب الشعب كان يحصل بمعرفة فرق الجيش المئينيه التي للاشراف النفوذ والسيطرة عليها فارتأى ڤوليرو ان يكون انتخابهم بمعرفة جمعية الاهالى العمومية التى لايحضرها أحد من الاشراف مطلقا ولا نفوذ لهم عليها فلم يقبل السناتو هذا الطلب العادل بل ماطل وحاول حتى مضت مدة(ڤوليرو) ولم يقرر مشروعه الذى سمى بقانون بوبليليا نسبة له ثم أعيد انتخابه رغم مساعى الاشراف وأشياعهم وانتخب معه (ليتوريوس) وكان أشد كراهة لاستبداد السناتو فاضاف الى مشروع ڤوليرو الاصلى ان يكون لجمعية الشعب العمومية حق التداخل فى شؤن الحكومة ايا كانت بواسطة الاقتراع العام

ومن جهة أخرى انتخب السناتو (اپيوس كلوديوس) ضمن قنصلى هاته السنة لمعاداته للشعب ومحافظته على امتيازات الاشراف وخصوصياتهم ولما اتى اليوم المحدد للاقتراع على مشروع ڤوليرو اجتمع الاهالى فى الفورم الموصلة ساحته الى محل انعقاد مجلس السناتو للتظاهر وتعضيد المشروع والزام المجلس بقبوله وتهديده بالثورة والعصيان لو رفضه فى هذه السنة أيضاً فلم تؤثر هذه المظاهرات فى أعضائه بل رفضه فهاج الشعب باجمعه وأعلن الاقرار عليه والعمل به رغم مجلس السناتو وعناده وحصلت عدة معارك بين الفريقين جرح فيها ليتوريوس وكاد يقتل كلوديوس لولا انه التجأ الى قاعة

المجلس ونجا بنفسه بكل مشقة

ثم أحتل الشعب قلعة الكابيتول والزم السناتو بالتصديق عليه فصدق مكرهاً وبذلك تم الفوز للشعب وتحصل الاهالى على مايمكنهم به التأثير على سير الحكومة خصوصاً بما أضيف على هذا القانون الجديد من ان للاهالى الحق فى الاقتراع في جمعيتهم العمومية على مايرونه ضروريا من القوانين والنظامات نعم ان تصديق السناتو كان واجبا لتنفيذها الا انه كان لم يرد بداً من الموافقة على مايعرض عليه لسبوق اقرار الامة عليه

هذا ولما انتخب المدعو (ايسيليوس) نائباً عن الشعب (تريبان) بالطريقة الجديدة اقترح انه لايجوز لاحد ما مقاطعة نائب الامة اثناء تكلمه بالفوروم ومن يفعل ذلك يحاكم بالقتل ومصادرة الاموال اذا اقتضت الظروف ذلك وصودق على هذا الاقتراح مع مافيه من القسوة والصرامة حباً فى منع حصول مايكدر صفاء الاجتماعات اثناء المداولة فى المسائل المهمة والتشويش على الخطباء ومنعهم بكيفية ما من تتميم خطابهم والتمتع بحرية الدفاع عن مشروعاتهم

وفى هذه السنة وهي سنة ٤٧٠ ق م دارت رحى الحرب بين الرومانيين وقبائل (الفولسك) و (الايك) فخرجت الجيوش تحت قيادة القنصل (اپيوس كلوديوس) الذى كان من أقوى المعارضين فى مشروع انتخاب نواب الشعب بمعرفة الجمعية العمومية كما سبق بيانه فى موضعه ولما كان الكل غير راض عنه لهذا السبب ولميله

للاثرة والاستبداد تقهقرت الجنود امام العدو بدون شديدمقاومة حتى اذا انهزموا وفاز عليهم العدو بالغلبة والانتصار حوكم (ابيوس) بصفة مقصر فى المواجب أو خائن للوطن لكن أدرك ابيوس دسيستهم وعلم ان انهزامهم لم يكن لشدة بأس العدو او كثرة عدده بل للاسباب التى ذكرناها فاراد الانتقام منهم قبل العودة الى رومة فعاقب أغلب رؤسائهم باشد العقوبات العسكرية صرامة وهو القتل تشفيا منهم ولما عاد الى المدينة اتهمه نواب الامة (التريبان) بالخيانة فقابل اتهامهم له بكل انفة وكبرياء وقتل نفسه حتى لايحاكم على جناية هو يرآء منها فاحتفل الاهالى بجنازته احتفالا باهرا اشترك فيه الاشراف والعوام لاعتبار الكل له بسبب شهامته وعلوه عن الدنايا وترفعه عن التزلف للامة ونوابها هذا

وبالاختصار فان طبقة العوام فى رومة تحصلت فى مدة ثلاث وعشرين سنة اي من سنة ٤٩٤ الى سنة ٤٧١ على سلطة ونفوذ فى ادارة شؤونها وشؤون الحكومة ما كانت لتتحصل عليها لولا اتحادها حق وتضافرها على الطلب والمثابرة عليه بكل ثبات لاترهبها القوة ولا ترعبها السطوة مادامت معتقدة انها تطالب بحق مقدس هو المساواة للاشراف الذين لايميزهم عن باقى طبقات الامة مميز طبيعى او عقلى

ففى سنه ٤٩٣ تحصلوا على حق تعيين نواب عنهم وفي سنة ٤٧٦ خول هؤلاء النواب لانفسهم حق اتهام القناصل امام الشعب وطلب محاكمتهم . وفى سنه ٤٧١ اجيز للشعب حال اجتماعه بهيئة جمعية عمومية

ان يقترع على الامور العموميه ويصدر عليها قرارات اهليه تكون نافذة على جميع الاهالى دون الاشراف مالم يصدق عليها السناتو الذي كان لايتيسر له الامتناع امام اجماع الشعب خشية الثورة واراقه الدماء

﴿ خيانة كوريولان ﴾

وفى أثناء اشتغال رومة بمسائلها الداخليه التى شرحناها مبتدى الاعداء حدودها مراراً ونهبوا مزروعاتها ومواشيها واقتربوا من المدينه لامتناع الجيوش عن الحرب مراراً بسبب توقف الحكومة عن تنفيذ القانون الزراعى

ومن غريب ماذكر فى تاريخ هذه السنين ولم يسبق فى تاريخ رومة في عهد الجمهورية ان الاعداء هاجموا الرومانيين تحت قيادة احد أشراف الرومان واسمه (كوريولان) كان فى الاصل من أكبر المدافعين عن وطنه وأشدهم تعلقا به الا انه كان مساعداً للاشراف ضد طبقة العوام وينسب له أنه عندما حصل جدب فى احدى السنين غلت الحبوب واشترت الحكومة مقداراً وافرا من الغلال من جزيرة صقلية لتوزيعها على الاهالى اقترح على السناتو عدم توزيع شئ على الشعب مالم يتنازل عن حق انتخاب نواب له ويرضخ للاشراف كما كان الحال قبلا فهاج الشعب ضده وطلبه التريبان (نواب الامة) للمحاكمة امام الشعب فحكم عليه بالنفى والابعاد فخرج مضمراً الشر لوطنه والعياذ بالله والتجأ الى توليوس أحد رؤساء قبائل الفولسك

الشهير بعد اوبته للرومانيين وعرض عليه استعداده للانتقام من وطنه وبنيه فقابله هذا العدو بقلب منشرح وصدر رحيب وقبل ان تكون رياسة الجيوش لكريولان ويكون هو نائبه فى قيادتها ثم قصد رومة سنة ٤٩٠ فى جيش عظيم وأمر كوريولان بنهب المزارع التى اصحابها من طبقة العوام وعدم مس اراضى الاشراف بسوء وسار بهذه الكيفيه يبذر الخراب والدمار فى طريقه الى ان وصل هذا الحوْن الى بعد خمسة أميال فقط من المدينه فأرسل اليه السناتو اكبر أعضائه سناً وأكثرهم اعتباراً لارجاعه عن غيه وحمله على كف الغارة عن وطنه فلم يقبل وكذلك لم يصغ الى نصائح وارشادات قسوس مذهبه الذين أخذوا يبينوا له قبح خيانته وعظم جنايته نحو وطنه وأهله بل أعماه واصمه حب الانتقام وأخيراً أتت اليه أمه (فيتوريا) باكية آسفة على عقوق ولدها ومساعدته الاعداء على بلاده بعد ان كان من أقوى المدافعين عن استقلالها فرثى لبلواها ورق لشكواها وعاد الى مع من معه من الجيوش مقتنعا بما أخذه من الغنائم فحنق عليه توليوس لعدم تمكينه من دخول رومة والاستيلاء عليها ويقال انه قتله وقيل انه لم يقتل بل بقي مطروداً مخذولا حتى مات غير مأسوف عليه

وكذلك كانت هذه الفطرة فرصة مناسبة لاعداء حلفاء رومة وهم قبائل اللاسيوم والهرنيك فاغارت الفولسك على بلاد اللاسيوم ولم يمكن رومة اسعافها بالمساعدة لاشتغالها بامورها الداخلية من جهة

ولاحتلال الفائيين مرتفع جانيكول بضواحى رومه عقب انهزام عائلة فابيوس على نهر كريميرا فى سنة ٤٧٧ واستمر هذا الضيق الى سنة ٤٧٤ حيث امضى بين أهالى مدينة (فايه) والرومانيين هدنة لاربعين سنة

ولم يتم لرومة السكون تماما لاغارة قبائل الايكيين عليها سنة ٤٧١ وصدهم عنها بهمة وشجاعة القنصل كونكيتيوس الذى لقب بابى الجند لحسن معاملته لهم واعتباره اياهم كاولاده لكن لم ترتدع هذه القبائل المحبة للحرب بل عاودت الكرة عليها أربع مرات وتبعهم القنصل فوريوس فى احداها سنه ٤٦٨ حتى وصل الى مضيق فخاصروه وضايقوا عليه الخناق وكاد يهلك هو وجيشه لولا ان امدهم كونكيتيوس باسعافه وتخليصه من هذه الورطة

وفى السنه نفسها فتح هذا القائد الذى حاز شهرة عظيمة مدينة انتيوم احدى الثغور المهمة وتبعد عن رومة بمسافة كيلو متر وعند عودته متصورا عمل له احتفال عظيم لم يسبق له مثيل صعد به الى قلعة الكابيتول ولذلك أعطى اليه لقب كابيتولينوس. ثم توالت اغارات الاعادى على اراضى رومة وكانت الحرب سجالا بين الطرفين وأهم ماحصل فيها ان بعض المطرودين من رومة هاجموها فجأة فى سنة ٤٩٥ تحت قيادة زعيم لهم اصله من السابيين اسمه هارورينوس واحتلوا الكابيتول عنوة ثم اكرهوا على اخلائه بعد ايام قلائل. وفى سنة ٤٥٨ تبع القنصل منوسيوس بعض قبائل الايك فحصروه فى مضيق

وخيف هلاكه ومن معه من الجنود فعين السناتو القائد سنسناتوس حاكما مطلقا لانقاذ القنصل المحصور . ولما توجه اليه وفد من المجلس لتبليغه خبر تعيينه وجدوه يحرث الارض بنفسه فقبل المأمورية وسار فى جيش عظيم وبعد ان أدى المأمورية وانقذ القنصل وجيشه عاد فى احتفال عظيم ثم استقال من منصبه الموقت فعادت الاحكام الى نظامها العادى وعاد هو الى محراثه كما كان . فتأمل لهذا التقشف وهذا الاخلاص وهذا التجرد عن الغايات وعن حب المناصب وقل لى بابيك كيف لا تبلغ امة اتصف افرادها بهذه الصفات الحميدة والخلال الوطينه شأوا عظيما فى العالم وتسود على من عداها وتتغلب على من عاداها ويمتد سلطانها على مشارق الارض ومغاربها

وبالاختصار كانت ايام الجمهورية الاولى ايام حروب مستمرة وخطوب مدلهمة لم تعد على رومة بفتح شئ من البلاد الا انها حافظت فى خلالها على اراضيها الاصلية ولو انه اصاب الامم المتحالفة معها بعض الضرر خصوصاً اللاتيين الا ان الرومانيين تدربوا فى خلالها على فنون الحرب وضروب النزال واستعدوا للفتوحات العظيمة التى انالتهم ملك جميع الارض التى كانت معلومة فى هذه الاعصر الخالية مما سيأتي ذكر مفصلا فى هذا الكتاب انشاء الله تعالى

﴿ الفصل الثانى ﴾

(حكومة العشرة وحصول الشعب على المساواة فى الامور المدنية)

قد سبق لنا شرح مانالته طبقة العوام (التى سميناها وسنسميها دائماً بالشعب أو الامة) من الحقوق والامتيازات لكن مانالته كان بعضاً من كل أو بعبارة أخرى ان ماتحصلت عليه كان عبارة عن الطرق القانونية التى بها تتحصل على المساواة مع طبقة الاشراف التى كانت محتكرة جميع الوظائف العالية ومحافظة على مالها من السلطة والسوود ولما كان الفوز دائماً لجانب الحق على القوة اذا ثابر أصحاب هذا الحق على طلباتهم وأصروا على المطالبة بها بالطرق القانونية العادلة انتهى الامر للشعب بالفوز والحصول على المساواة تدريجيا تبعاً للظروف واختلاساً للفرص المناسبة فحصلت فى سنة ٤٥٠ على المساواة فى الامور المدنية وفى سنه ٣٩٧ على المساواة السياسية وفى سنة ٣٢٩ ، ٣٠٦ على المساواة القضائيه وفى فى وظائف القضاء وفى سنة ٣٠٢ على المساواة الدينية

وبيان عدم المساواة المدنية ان الاحكام كانت بيد القناصل ومجلس السناتو وبعض القضاة لكن كانت اختصاصات كل منهم غير محددة بكيفية تمنع تجاوز الحدود ومن جهة أخرى كانت الاحكام تصدر لا على قانون معلوم للعموم بحيث ان كل فرد يعلم

ماله وما عليه بل كانت تصدر بناء على قواعد قديمه وعوائد مألوفه لايعلمها الا القليل يتصرف فيها أصحاب الاهواء حسب غاياتهم ومنافعهم الشخصية

وحيث كانت ازمة الحكومة فى ايدى طبقة الاشراف كان الحيف والظلم دائما على فقراء الاهالى . ولذلك اجتمع نواب الامة (تريبان) واتفقوا على أن يطلبوا من الحكومة تعيين لجنة مؤلفة من عشرة متشرعين يكلفون بتدوين العوائد القديمة وتقنينها وترتيبها بطريقة يسهل فهمها على العموم فلا يمكن للقضاة التلاعب بالاحكام ثم ينشر هذا القانون ويعلق فى الفورم ليكون معلوما للخاص والعام . واختار النواب أحدهم المسمى ترنتليوس ارسه لعرض هذا الطلب والسعى فى الحصول عليه فقام بهذه الدعوة فى سنة ٤٦١ لكن لم يصادف طلبه قبولا لدى مجلس السناتو بل رفضه رفضاً باتاً وتحزب بشأن الاشراف ضد هذا المشروع تحت زعامة (سيزون) ابن سنسناتوس فصاروا يتجمهرون فى الفورم ويشوشون على الاهالى فى اجتماعاتهم ويمنعون مداولاتهم فاتهم بعضهم سيزون بضرب أحد نواب الامة فى احدى هذه المناوشات وأتهمه آخر باصابة أخ له طاعن فى السن بعربته لقتله واشاعوا هذه التهم فى الفورم فهاج الاهالى وطلبوا محاكمته فهرب الى جهات اتروريا سنة ٤٦٠ فرارا من العقاب وهو القتل جزاء تعديه على أحد نواب الامة حال تقلده منصب النيابة كما كانت تقضى

بذلك القوانين

ولما هاجر أخذ يفكر فى الانتقام من أهل وطنه فاستعان باحد رؤساء السابين و اسمه هرديينيوس وأغار على رومة ومعه كثير من المطرودين والمبعدين لشروزهم ومفاسدهم فاحتلوا الكابيتول ثم استخلصه الرومانيون وقتلوا كل من به من الاعداء. ولم تشترك الامة فى هذه الحرب الابعدان وعدها القنصل ڤاليريوس بقبول مشروع النائب ترنتليوس السابق ذكره جزاء مساعدتهم على طرد الاعداء لكن لسوء الحظ قتل ڤاليريوس فى هذه الواقعة وعين مكانه سنسناتوس والد سيزون الذى فر هرباً من المحاكمة (وربما كان ضمن المقتولين فى الكابيتول) فلم يقم بنفاذ ماوعد به القنصل السابق وطلب من السناتو رفض المشروع فرفض

الاان الاهالى داوموا على اصرارهم وثبتوا فى طلبهم وأعادوا انتخاب نوابهم المساعدين على هذا المشروع خمس سنين متوالية ولما لم تر الحكومة بدا من اجابة طلبهم منعا للمشاغب والفتن الداخلية التى تجرئ الاعداء على محاربتها عمدت الى الحيلة والخديعة فقررت ان يكون عدد نواب الامة (التريبان) عشرة حتى يمكنها التفريق بينهم فيكون عدم اتحادهم مضعفا لقوتهم ومقللا من نفوذهم لكن فطن الاهالى لهذه الحيلة فزادوا اتحادا وتضافرا على المطالبة بحقوقهم

وفى سنة ٤٨٤ ق ـ م طلب النائب (إسليوس) ان توزع اراضي الحكومة الكائنة على مرتفع (اڤنتان) على فقراء الاهالى

فقررت الامة هـذا الطلب فى جمعيتها العمومية والزم إسليوس القناصل على عرضه على السناتو وتحصل على تصريح خصوصى بحضور الجلسة التى بحث فيها فى هذا الطلب (وكان ذلك غير جائز لنواب الامة) وبقوة بيانه وبلاغة خطابه اقر السناتو عليه خوفا من حصول ثورة داخلية . وكان لحضور اسليوس مجلس السناتو نتيجة عظمى حيث اعتبر هذا التصريح الاستثنائى سابقة تتبع فى المستقبل وصار لنواب الامة من ذلك التاريخ الحق فى حضور جلسات السناتو للدفاع عن مشروعاتهم بل وفى طلب انعقاده ايضا في جلسات فوق العادة للمداولة فى المشروعات المهمة التى يكون في تأخيرها ضرر

وبعد ذلك عادت الامة للمطالبة بمشروع ترنتليوس القاضى بتدوين الشرائع وتقنينها فماطل السناتو مدة ثم لما رأى ان ضرر التسويف اكثر من نفعه وان لابد من الرضوخ لطلبات الامة يوما طوعا او كرها قرر قبول هـذا المشروع مبدئياً وتعيين لجنة مؤلفة من ثلاثة اعضاء للسفر الى مدينة أثينة مقر حكومة الهلّين الذين اشتهروا فى التواريخ العربية باسم الاغريق والى المدن التى أسسها الاغريق في جنوب ايطاليا للبحث فى شرائعها وقوانينها وأخذ مايوافق بلاد الرومانيين منها ووضع قانون كاف شاف بعد عودتهم من هـذه الرحلة وكان قصد السناتو بتعيين هـذه اللجنة المماطلة وضياع الوقت فى سفرها فتكون افكار الاهالى قدسكنت وهدأت حركتهم فيتخلص السناتو من تنفيذ هذا المشروع

لكن لم تصب سياستهم ولم تنجح حيلتهم فان الاعضاء الثلاثة عادوا فى اقرب وقت

فالتزم السناتو بتعيين هيئة حكوميه من عشرة متشرعين خول اليهم السلطة المطلقة وأوقف سير النظام الاصلى وابطلت وظائف القناصل ونواب الامة موقتاً ريثما تتم الهيئة الجديدة مأموريتها وهي سن قانون جامع يبني عن العوائد القديمة مع اضافة ما يلائم البلاد من عوائد وقوانين الاغريق التى جمعها المندوبون الثلاثة وابتدأت الحكومة الجديدة عملها فى مايو سنة ٤٥٠ ق ـ م وكانت الرئاسة لكل منهم مدة اربع وعشرين ساعة فقط فاشتغلت هذه اللجنة مدة سنة سارت الامور فى اثنائها بغاية الهدو والسكينة وفى ختامها أتمت سن ما كلفت به من القوانين وأمرت بنقشها على عشرة ألواح وتعليقها فى الفورم ليطلع عليها العموم ويبدى كل انسان مايعن له من الملحوظات ويعرضها على اللجنة وهى بعد جمع هذه الملحوظات وتنقيح القوانين بمقتضى مايوجد منها موافقا للصواب تعرضها منقحة على الامة في اجتماعها العمومي فتقررها أو ترفضها

ولما انقضت السنة الاولى ووجب تغيير أعضاء اللجنة العشريه حسب العادات الرومانيه التى تقضي بتغيير الحكام كل سنة خوفا من طموحهم الى الاستبداد سعى أحدهم المدعو اپيوس كلوديوس فى أن يعاد انتخابه خلافا للعوائد المتبعة وان ينتخب الباقون من خاملى الذكر ضعاف العزائم الذين لايقوون على معارضته وساعده على

ذلك شبان الاشراف انتقاما من الامة على تحصلها على جملة حقوق وسعيها في الحصول على المساواة بهم وقد جرأ نابيوس على ذلك نفس أعضاء مجلس السناتو الذين أظهروا له سرورهم من خطته ولم يراعوا واجب الدفاع عن حرية الشعب ناظرين الى سوء العاقبة التى تعود عليهم من استبداد فرد بالسلطة اذ لايقتصر ظلمه واستبداده على طبقة من الامة بل يتعدى الى باقى الطبقات عاليها وسافلها لكن هو الغرض يعمى عن نظر الحقيقة ويصم عن سماعها فتلحق المصيبة العموم ولا يلتفت الى عواقبها الابعد فوات الوقت فيندم المتسببون فيها حيث لاينفع الندم

وبهذه المساعدات تحصل ابيوس على مرغوبه وأعيد انتخابه وانتخب رفاقه على حسب مايحب ويهوى حتى صار هو صاحب السلطة المطلقة فعلا ان لم يكن قانونا وصارت أرواح الاهالي وأموالهم فى قبضة يده يتصرف فيها بما يمليه عليه الغرض ويلقنه اليه الطمع ولا رادع يردعه لتوقيف جميع دواليب الحكومه ونظاماتها موقتا كما ذكر قبل

واستمرت الحال كذلك الى انتهاء السنة الثانية من تعيينه ولما انتهت لم يظهر رغبته فى الاستقالة لينتخب غيره كما جرت به العادة بل ظل قابضا على ازمة الاحكام بصفة غير قانونية والاشراف مساعدون له وأعضاء مجلس السناتو غاضون الطرف عنه

وفى هذه السنة اتمت لجنة التشريع لوحتين صار نقشهما وتعليقهما

فى الفورم كالعشرة الواح السابقة وسنأتى على ملخصها بعد .

ثم اتاح الله لرومة فرصة مناسبة كادت تتخلص بها من استبداد اپيوس وزملائه لولا ضعف عزيمة بعض اعضاء السناتو وعدم ثباتهم وذلك ان بعض قبائل السابين والايك تعدت حدود رومة فاجتمع السناتو بصفة غير اعتيادية لتقرير مايلزم لصد الاعداء وفى الجلسة قام احد الاشراف الغيورين على حرية وطنه واسمه ڤلريوس وطعن في هيئة الحكومة التى يرأسها اپيوس وابان مخالفتها للقوانين وضرورة ابطالها واعادة الاحكام الى ما كانت عليه خصوصاً وقد اتمت عملها التشريعي وعلقت الاثنى عشر لوحا وختم خطابه قائلا ان اولاد الذين طردوا الملوك لايخضعون لاوامر غيرهم . فعضده بعض الاعضاء وقاومه آخرون وبعد مناقشة طويلة تقرر بقاء الهيئة موقتاً على ماهى عليه وان تسلم لها الجيوش لمحاربة الاعداء فخرجت الجيوش للقتال وعادت بالخيبة لعدم كفائة قوادها وعدم ثقة الجند بهم

وبعد ذلك بقليل ارتكب اپيوس امراً استبداديا يدل على تجرده من الشرف والذمة وكان السبب فى نفور الامة منه وهو انه احب فتاة تدعى (فرجينيا) ابنة احد الاعيان فاوعز الى احد اتباعه ان يدعيها رقيقة له فيحكم له هو بذلك ويسلمها اليه ثم يردها اليه ليقضى منها أربه فصدع التابع بامره ورفع دعواه اليه فحكم بملكيته لها مع قيام الادلة واتفاق الشهود على انها حرة النسب

فلما رأي والدها ان لابد من تسليمها اليه فضل ان يقتلها ويعدمها

الحياة على مايلحقها ويلحق عائلتها من العار لو سلمها الى هذ الباغي فعمد الى دكان قصاب وأخذ منها سكينا طعن بها ابنته وفلذة كبده طعنة كانت القاضية ثم حمل جثتها ودمها البريء يسيل فى الطريق حتى وصل الى الفورم وهناك اجتمع عليه الاهالى فاظهر لهم حقيقة الحال وشرح لهم تدبير هذه المكيدة بمعرفة اپيوس فاستفزت الغيرة الحضور وهاج الشعب ضد هذا الباغى ومعضديه وانضم الهم الجيش وطلب الجميع بلسان واحد اسقاط هذه الهيئة واعادة الاحكام الى سابق مجراها فتوقف اپيوس قليلا لمساعدة بعض اعضاء السناتو الذين كانوا يخشون اعادة سلطة نواب الامة (التريبان) ثم انصاع خوفا من حصول ثورة اهلية تكون عاقبتها اكثر وخامة عليهم واستقال هو وباقى اعضاء الحكومة الموقتة في سنة ٤٤٨ وعاد الموظفون الاصليون الى مناصبهم . ولنذكر الآن بطريق الايجاز ملخص مادونوه من القوانين فى الاثنى عشرة لوحة وعلى من يريد الوقوف عليها تفصيلا ان يراجع القانون الرومانى

أهم ماجاء بهذه الالواح تقسيم الاملاك الى عمومية وخصوصية وعدم جواز امتلاك العمومية بالمدة الطويلة مطلقاً وتملك الاراضى الخصوصية بوضع اليد عليها مدة سنتين فقط بشرط ان يكون واضع اليد رومانياً لا أجنبياً أما الاجانب فلا يمكنهم امتلاك أراضى الرومانيين بالمدة مهما طالت ولذلك كان الاجانب يسعون دائماً في التجنس بالجنسية الرومانية حتى لاينازعوا فى املاكهم بعد سنتين

والقصد من ذلك أمر ان أولهما حمل الاجانب على طلب الدخول ضمن العشيرة الرومانية وثانيهما وهو الاهم عدم اهمال الملاك أراضيهم خوفا من امتلاك الغير لها فلا تهمل الارض بل يعتنى بزراعتها واستغلالها فتزداد العمارية وتنمو الثروة . أما المنقولات والعبيد فتملك بوضع اليد مدة سنة واحدة . وأبقت القوانين الجديدة كافة حقوق رب العائلة على زوجته وأولاده وعبيده على ما كانت عليه من الاطلاق وعدم التقييد ولم تبطل ما كان متبعاً من جعل المدين رقا لمدائنيه يبيعونه ويقتسمون ثمنه أو يقتلونه ويقتسمون جثته مع مافى هذه العادة من التوحش واجازت قتل اللص لو فوجئ ليلا حال تلبسه بالسرقة ونهارا لو حصلت منه مقاومة عند ضبطه أما فى مسائل الجروح والضربات واتلاف الاعضاء فقررت بمجازاة المثل أى العين بالعين والسن بالسن وهكذا مالم يرض الجانى المجنى عليه بالمال الى غير ذلك من الجزآت .

وأهم ماجاء فيها في صالح الشعب مما كان يسعى ورائه هى المساواة فى التقاضي والمحاكمة بين جميع الافراد سواء فى ذلك الرفيع والوضيع والشريف وغيره فابطل التمييز فى التقاضى وصار القانون واحدا يخضع الجميع امامه وأهم من ذلك انها جعلت جميع الاحكام قابلة للاستئناف امام الامة فى جمعيتها العمومية وانها هي دون غيرها التي تحكم بالاعدام وان مايقرره الشعب يكون قانوناً عمومياً على جميع الاهالى وان شاهد الزور والقاضى الذى يحيد عن الحق ويتبع

سبيل القرض أو يقبل الهدية يلقى من مكان شاهق

وبذلك تحصلت الامة على المساواة فى الامور المدنية التي لا يوجد عدل أو انصاف الا بها الا انهالم تحصل هذه الدفعة على المساواة فى تقلد المناصب بل ظلت الوظائف منحصرة فى طبقة الاشراف فمنهم القناصل (رؤساء الجمهورية) وأعضاء السناتو والكهنة والقضاة وكذلك بقي الزواج ممنوعاً بين الاشراف وغيرهم غيرة منهم على عدم الاختلاط مع افراد الشعب وبقاء المناصب محتكرة فى طبقتهم لكن من يتأمل فيما نالته الامة من الحقوق تدريجيا بثباتها واتحادها يحكم لأول وهلة أن لابد من حصولها على جميع حقوقها الطبيعية التى كان منحها لها الملك سرڤيوس وسلبها اياها تركان فان الحقوق لابد من الحصول عليها يوماً ما مهما اشتدت المعارضات والنصر ينتهي دائماً للحق ضد القوة ولو فازت القوة بالغلبة فالى حين اذ الحق يعلو ولا يعلى عليه

وبعد استقالة الحكومة الاستثنائية كما سبق شرحه توجه عضوان من السناتو محبوبان لدى الامة وهما ڤلريوس وهوراسيوس الى محل اجتماع الامة ووعداها باعادة انتخاب نواب الامة العشرة مع حق استئناف جميع الاحكام أمام الامة وبالحصول على العفو المطلق عن جميع من اشترك فى الهياج الاخير فانشرحت الامة لهذه الوعود لكنها احتلت قلعة الكابيتول ريثما ينفذ السناتو ما وعدبه فاستدعى السناتو الاهالى للاجتماع لانتخاب نوابهم فاجتمعوا وتم

الانتخاب على الطريقة القديمة ثم انتخب ڤلريوس وهوراسيوس السابق ذكرهما قنصلين وبذلك عادت الاحكام الى سابق مجراها ثم استصدر هذان القنصلان عدة قوانين ضامنة حرية الاهالى وعدم مساسها بسوء أهمها أن كل من يسعى فى تعيين حكام مطلقين تكون أحكامهم غير قابلة للاستئناف يجازى بالموت وكذلك من يتعدى بالايذاء على احد نواب الامة وان الحاكم الذى لايجمع الامة فى آخر السنة لانتخاب نوابها يجازى بالجلد ثم بالقتل وان جميع قرارات السناتو ينسخ منها صور يصدق عليها نواب الامة وتحفظ بهيكل {سيريس} منعاً لحصول الغش والتزوير فيها

ولما توطدت الحرية وصار لايخشى عليها قال فرجينوس والد ڤرجينيا الذى قتلها تخليصاً لها من الوقوع فى أيدى من لايصون عرضها ويحافظ على شرفها وأتهم اپيوس رئيس الحكومة الاستثنائية الملغاة أمام الامة بتحريض المدعى بملكيتها والتحيز له فى الحكم قضاء لغرضه فسجن أپيوس انتظاراً للحكم على ما اقترفه ولتحققه بما سيحكم به عليه قتل نفسه فى السجن فراراً من العدالة وكذلك أحد رفاقه العشرة أما الباقون الذين ساعدوا أپيوس على استبداده فخرجوا من المدينة خوفاً من المحاكمة وصودروا فى أملاكهم

وفي أثناء ذلك حارب هوراسيوس قبائل السابين وانتصر عليهم نصراً مبيناً أوقع الرعب في قلوبهم حتى لم يقدموا على محاربة الرومانيين مرة أخرى مدة مائة وخمسين سنة ولما عاد منصوراً لم

يقبل السناتو أن يعمل له موكب حسب المعتاد انتقاماً منه لمساعدته الاهالى فى طلباتهم ضد الاشراف فقررت الامة ذلك فى جمعيتها العمومية خلافاً للعادة واحتفل به احتفالا شائقاً واعتبر هذا القرار قاعدة تتبع فى المستقبل وكان هذا الامر قبل ذلك من حقوق السناتو ليس الا

وفى هذه السنة تعدت الامة على أهم اختصاصات هذا المجلس وهو الاقرار على الحرب الذى كان له دون خلافه حتي فى عهد الملوك وبهذه الطريقة زادت حقوق الامة كثيراً عن ذى قبل وكانت كلما تحصلت على حق أو امتياز تتساق بحب التقدم والارتقاء الى طلب غيره وتثبت فى المطالبة بالطرق السلمية تارة وبالهياج والثورة أخرى حتي صارت هي صاحبة القول الفصل والسلطة الحقيقية فى الحكومة كما يجب أن يكون الامر فى كل حكومة جمهورية

ولما ازدادت سلطة الشعب وبالتالى سلطة نوابه (تريبان) ورأى الاشراف أن لا بد من امتدادها سنة عن سنة أرادوا أن يستفيدوا بهذه السلطة ويحولوها لمنفعة طبقتهم بحصولهم عليها كلها أو بعضها بالانتخاب وذلك باستمالة المنتخبين وبذلهم المال والعطايا لهم فشعر النواب بهذه المساعي التي لا يكون ورائها الا ضياع كل ما تحصلوا عليه من الحقوق ونالوه من المزايا بعد العناء والتعب واستصدروا قراراً من الامة في سنة ٤٤٧ ق ـ م . يحجر على الاشراف أن ينتخبوا في هذه الوظائف وان تبقى محتكرة لباقى

طبقات الاهالى دونهم

وفى هذه السنة وجه الشعب اهتمامه لمسئلتين عظيمتين كانتا من أكبر المميزات بينه وبين الاشراف أولاهما احتكار الاشراف لجميع وظائف الحكومة والثانية عدم جواز التزاوج بين الطبقتين فتحصلوا في الاولى على بعض الشئ وهو تعيين أمناء الخزينة العمومية وقضاة تحقيق الجنايات بواسطة الانتخاب العمومى بدون تمييز بين الطبقات أى من الاشراف أو غيرهم على حد سواء وكان تعيينهم قبلا بمعرفة القناصل وهم ينتخبونهم طبعا من الاشراف لعدم ثقتهم فى غير أهل طبقتهم وأما المسئلة الثانية وهى عدم التزاوج بين الطبقتين فتحصلوا فى سنة ٤٤٥ على لغوها بالمرة بهمة النائب كانوليوس وذلك انه بعد ان تجمهر الاهالى واظهروا استعدادهم للثورة خضع السناتو لطلبهم لاعتقاده ان الاخلاق والعوائد تمنع تنفيذه وتبقي الانقسام الاصلى على حاله وان طبقة الاشراف تستمر على عدم الاختلاط بمن هو ادنى منها فى اعتقادها وبعد ذلك طلب الشعب أن يعين من بين افراده أحد القنصلين واثنان من مراقبي المالية (وكان لهم اختصاص نظار المالية الآن) فحاول السناتو واستعمل الدهاء وقرر أن يعين مراقبو المالية من الاشراف وغيرهم بدون تخصيص فمنح الشعب حقاً يسهل عليه حرمانه منه وفى الواقع لم يعين فى هذا المنصب أحد من الاهالى عدة سنوات متوالية

وأما مسئلة تخصيص احدى وظيفتى الرئاسة العظمى (قنصلية)

بالاهالى والاخرى بالاشراف فراوغ فيها السناتو وصمم على رفضها وبقاء الوظيفتين فى طبقة الاشراف لكن لما رأى المماطلة لا تفيده شيئاً وانه لابد له من الرضوخ لطلبات الشعب بأجمعها ان أصر على المعارضة قرر فى سنة ٤٤٤ بتعديل القانون الاساسى بكيفية ترضي الشعب ولا تسلب الاشراف جميع امتيازاتهم بل تمنح الشعب بعض مزايا ظاهرية تسكن هياجه وتطفئ لهيب اشتياقه الى تقلد الوظائف العالية ومشاركة الاشراف فى المناصب وبيان ذلك أن يعين ثلاثة موظفون عاليون أو أكثر حسب الاحوال يكون انتقائهم من جميع الاهالى بدون نظر الى حسب أو ثروة يقومون مقام القنصلين اللذين تلغى وظيفتهما ويعطى لهم لقب (نائب قنصلى) لجمعهم بين بعض اختصاصات نواب الامة وبعض اختصاصات القناصل

ولا تعطى لهؤلاء الموظفون جميع اختصاصات القناصل بل تجزأ سلطتهم بين عدة موظفين آخرين يختص ببعضها الاشراف دون غيرهم بحيث لا يبقى لهم الا الاختصاصات الآتية أولا ـ يجب أن لا تنحصر قيادة الجيش فى أحدهم بل يكون كل منهم قائداً لفرقه معينة حتى لا تكون لاحدهم سلطة جسيمة يمكنه استعمالها لتنفيذ أغراض حزبه أو مطامعه الخصوصية ثانياً ـ القضاء المدنى أى الحكم فى المسائل المدنية ثالثاً ـ رئاسة مجلس السناتو والجمعيات العمومية رابعاً ـ وظيفة المحافظة على مدينة رومة من كل طارئ

خارجي ومراقبة تنفيذ قوانين ونظامات الحكومة

ثم أنشئت وظيفتان عاليتان تكون اختصاصات من يعين فيهما تعداد الاهالى وحصر ثروتهم لتقسيمهم الى طبقات بحسب غناهم وفقرهم كما سبق شرحه فى موضعه وتحرير قوائم أعضاء السناتو والشوالية والمحافظة على الامن داخل المدينة

ومع تقليل اختصاصات وظيفة النواب القنصليين بهذه الدرجة فلم يعين فيها احد افراد الشعب الى سنة ٤٠٠ ق — م بل بقيت منحصرة فى يد الاشراف كما كانت وظيفة القنصل الاصلية وذلك لعدم تحتيم القانون الجديد تقسيمها بين الاهالي والاشراف وجعلها مشتركة بينهم

وزيادة على ما ذكر فان وظيفة القنصل الاصلية لم تلغ بالمرة بل أوقف التعيين فيها موقتاً وفي أول كل سنة كان يسأل السناتو الشعب عن رغبته فى النظام الذى يرى أن يحكم به فى هذه السنة أنظام القنصلية القديم أو نظام النواب القنصليين الحديث وبهذه الطريقة تمكن السناتو بما له من النفوذ والاعوان من اعادة النظام القديم أربعة وعشرين مرة في مدة الثمانية وسبعين سنة التى مكثها هذا النظام مع ما فيه من الاختلال وعدم الثبات وتغيير نظام الحكومة من سنة لاخرى ذلك الاختلال الذى جرأ أعداء رومة على التعدى على حدودها وحمل أصحاب المطامع الذين يترقبون الفرص للاستحواذ على السلطة والاستبداد بها على اتخاذ هذا الاعتلال وسيلة لتنفيذ

ما تخفيه صدورهم من الاغراض المضرة باستقلال رومة والنوايا القاتلة لحريتها

فمن ذلك ماحصل فى سنة ٤٣٧ من أحد الاغنياء اذ توهم أن الرومانيين يفضلون الراحة تحت سلطة حاكم مطلق يبدل بينهم على حالتهم الحاضرة لما فيها من القلق والاضطراب والاخذ والرد بين الاحزاب فاشترى كثيراً من الغلال وأخذ يوزعها مجاناً على الاهالى ليستميلهم اليه بسبب اهمال المحصولات وارتفاع أثمانها فى تلك السنة فاوجس السناتو منه خيفة وعين سنسناتوس (دكتاتور) أى حاكما مطلقاً ليوقف هذه الحركة ويقاوم تيارها ويجازى محازبى هذا الساعى فى العبث بحرية وطنه بالعقوبات الصارمة التى تستدعيها الحال بدون مراعاة المرافعات والاجراآت العادية

فطلبه سنسناتوس ليدافع عن نفسه فاظهر الامتناع والاحتماء بمن أحسن اليهم وقاوم الحجاب الذين أرسلوا للقبض عليه ولذلك اضطر الدكتاتور الى ارسال قائد الفرسان لاحضاره قهراً فذهب اليه ولما قاومه وامتنع عن الامتثال لامره قتله بيده فى وسط محازبيه وانصاره ثم هدم منزله وبيع ما جمعه من الغلال بأبخس الاثمان وبذلك انتهت هذه الفتنة واستقال سنسناتوس من منصبه الموقت وعادت الاحكام الى سابق مجراها بكل هدو وسكينة

هذا وكانت الحروب فى أثناء تلك الحوادث وبعدها مستمرة

تقريبا بين الرومانيين ومجاوريهم وكان النصر غالبا من جانب جيوش رومة ولم يحدث فى خلالها من الامور التي تستوجب الذكر الا أمران أولهما — توقف القناصل فى سنة ٤٢٨ بعد انهزامهم فى احدى الوقائع عن تعيين (دكتاتور) لصد الاعداء كما كانت العادة فاستعان السناتو بنواب الامة على الزامهم بذلك فلبوا دعوته وكانوا له عونا على الاشراف وهى أول مرة قاوم فيها السناتو الاشراف وأخضعهم بمساعدة الشعب وبذلك ازداد نفوذ الاهالى وتحصلوا في السنين التالية على عدة امتيازات

وثانيهما — محاصرة الرومانيين لمدينة (ڤايه) أهم مدائن الاتروسك وهى التى اتعبت الرومانيين نحو قرن ودخولها عنوة في سنة ٣٩٥ ق — م تحت قيادة فوريوس كاميلوس الذى انتصر في عدة وقائع شهيرة. وقد اعقب فتح هذه المدينة خضوع عدة مدائن اخرى مهمة وبعد ذلك عاد كاميلوس الى رومة ودخلها فى موكب حافل متناه فى الابهة والعظمة وزاد اعتباره فى اعين العموم حتى صار ذا نفوذ عظيم اوجب الريب فى نواياه وخيف من تطاوله الى اغتصاب الحكومة ولكون الرومانيين كانوا غيورين على حريتهم متمسكين باستقلالهم كانوا يخشون من ظهور اى انسان وحصوله على محبة الاهالى من ان يعبث بنظام الحكومة ويستأثر بها ولذلك كانوا يبادرون باتهامه لألجائه الى الخروج من المدينة ولو ادى الامر الى انقلابه على وطنه واهله ومساعدته الاعداء عليهم لعلمهم واعتقادهم ان عدواً أجنبيا مهاجماً

خير من عدو داخلى ينتخر عظام نظام الحكومة ويقوض أركانها شيئاً فشيئاً . ومما زاد حنق الاهالي عليه معارضته جميع مايقدمه نوابهم من المشروعات ومساعدة الاشراف على مشروعاتهم فأتهموه فى سنة ٣٩٠ ق . م . بارتكاب الرشوة ودعوه للمحاكمة فلم ينتظرها وفضل النفى الاختيارى على الوقوف امام هيئة القضاء وتبرئة نفسه مما نسب اليه

قد فقدت رومة بخروجه قائداً مجرباً وجندياً محنكاً كان يقودها كثيراً ضد أعدائها خصوصاً وكانت أمة الجلوا[1] المعروفة فى كتب العرب باسم الجلالقة تتحفز للوثوب عليها كما سيذكر مفصلا فى الفصل الآتي

﴿ اغارة الغاليين (الجلالقة) على رومة ﴾

الغاليون أمة كانت تسكن فى الاصل الارض المكونة لجمهورية فرنسا الآن ثم ارتحل فريق منهم الى ايطاليا ونزل فى شمالها ومنها انتشروا شيئاً فشيئاً حتى وصلوا الى قرب رومة والمدائن المجاورة لها وفى سنة ٣٩٠ ق — م طلبوا من (كلوزيوم) احدى مدائن الاتروسك أن تعطيهم بعض أراضيها ولما امتنعت حاصروها فاستعان أهلها برومة فأرسلت ثلاثة سفراء للتوسط بين الفريقين ولما قابلوا (برنوس) قائد الغاليين قال له احدهم باى حق تهاجم هذه المدينة ولم يسبق بينها وبينكم عداوة فاجابه بما معناه ان لاحق امام القوة فغضب السفراء ودخلوا المدينة المحصورة واشتركوا مع سكانها فى الدفاع عنها وفي احدى الوقائع قتل أحدهم المدعو امبوستوس قائداً غالياً بيده وجرده من سلاحه فطلب الغاليون محاكمته ولما امتنع الرومانيون عن ارضائهم تركوا مدينة كلوزيوم وقصدوا رومة للانتقام لرئيسهم فقابلهم الجيش الرومانى على بعد ميل خارج اسوار المدينة وبعد قتال عنيف انهزم الرومانيون فى ١٦ يوليه سنة ٣٩٠ بكيفية لم تسبق لهم من قبل وعادوا الى مدينتهم بدون انتظام ومن شدة ماداخلهم من الوهم والخوف من شجاعة الغاليين ومنظرهم الوحشى لم يقفلوا الابواب ولم يفتكروا فى اقامة الحرس على الاسوار بل التجأ فريق منهم الى قلعة الكابيتول وتشتت

الباقون شزر مزر فى القرى والبلاد المجاورة وتحصن الحكام وأعضاء السناتو فى هذه القلعة بعد ان نقلوا اليها ما بالمعابد من الاشياء الثمينة ولو تبعهم الغاليون بدون ابطاء لدخلوا القلعة بكل سهولة لكن أشغلهم فرحهم بهذا الانتصار الغير منتظر عن تتميم فوزهم فصرفوا هذا الوقت الثمين فى تجريد القتلى عن ملابسهم وقطع رؤوسهم ولم يدخلوا المدينة الى فى اليوم التالى فلم يجدوا بها الا بعض أعضاء السناتو الذين فضلوا انتظار المدو والتعرض للموت على الهروب والالتجاء الى المدن المجاورة فبهت الغاليون من سكونهم والخطر محدق بهم حتى ظنوهم من غير بنى الانسان ولمس أحدهم لحية رجل هرم من بينهم فضربه الشيخ بعصاه فقتله المدو ثم سرى القتل فى المدينة حتى لم يبق أحد ممن بقى بها ثم اشتغلوا بنهب المنازل وحرقها بعد تجريدها وأخيراً أرادوا الاستيلاء على قلعة الكابيتول عنوة . وكان الرومانيون قد أتموا تحصينها فردوا عنها بعد ان قتل منهم كثيرون على الأسوار ولذلك اتفق رؤسائهم على محاصرتها ومنع المدد والمؤنة من الوصول اليها واستمر الحصار مدة سبعة أشهر هلك من الغاليين فى اثنائها خلق كثير بسبب هجوم الشتاء وعدم وجود حاصلات لترك الارض بدون زراعة ولتفشى الامراض فيهم . ولذلك تفرق المحاصرون فى القرى والمزارع المجاورة للبحث على مايقتاتون به فهاجم اللاتين والاتروسك كل من مر بارضهم من الاعداء دفاعا عن أموالهم وصاروا يقتلون كل من عثروا عليه منهم وكذلك القائد الشهير فوريوس

كاملیوس الذی کان هجر رومة هربا من المحاکمة کما سبق شرحه وأقام بمدینه اردیا جمع جیشامن هذه المدینة وقاتل فرقة من الغالیین وهزمها دفاعا عن وطنه الذی ظل محافظاً علی محبته والاخلاص له ولو اضطرته الظروف لمهاجرته . فلما رأی الرومانیون المقیمون بمدینة(قایه) هذا الاخلاص منه عینوه حاکما مطلقاً وقائداً عاما لمطاردة الغالیین ثم ارسلوا کومینوس الی القلعة للحصول علی قرار من مجلس السناتو یقضی بان ترد الیه حقوقه الوطنیة التی کان فقدها بسبب مهاجرته وباعتماد تعیینه فذهب هذا الرسول الی رومة وأفرغ جعبة الحیل حتی وصل لیلا الی القلعة بدون ان یره المحاصرون وتحصل علی القرار المذکور وعاد من الطریق التی اتی منها وفی الصباح رأی الغالیون اثر اقدام فاقتفوها حتی وصلوا الی أسوار القلعة وهاجموها فردوا عنها بعد ان خسروا خسائر جمة . لکن لم یتیسر للرومانیین البقاء فی هذه الحالة لنفاد المؤنة وعدم اسراع کاملیوس بالمجیء لنجدتهم فاتفق النائب الحربی مع قائد المحاصرین علی ان یرفعوا الحصار عن القلعة ویخلوا المدینة ویعودوا لبلادهم بشرط ان یدفع لهم الرومانیون مقداراً من الذهب یبلغ وزنه بالموازین الحالیة ٣٢٦ کیلو غراما وثلث تقریباً ویقدموا لهم ما یلزمهم من المؤنة وعربات ودواب النقل فغش الغالیون فی وزن الغرامة ولما لاحظ الرومانیون ذلك علیهم اجابهم القائد (برنوس) قائلا « ویل للمهزومین » والقی سیفه ونجاده فی المیزان والزم الرومانیین

بدفع ثقلها ذهبا فدفعوه مكرهين

لكن لما بلغ كاميلوس خبر هذه المعاهدة لم يصادق عليها بل نبذها ظهريا واوعز الى المدائن المحالفة لرومة بعدم امداد الغالبين بشئ وقفل الابواب امامهم ومهاجمة مايلاقونهم من فرقهم وقتل كل من يتخلف منهم فى الطريق وجمع هو عدداً عظيما من بقايا الجنود الرومانية وتبعهم فى عودتهم وبذلك قتل كثير منهم ولم ينج الا القليل وقد بالغ بعض مؤرخيهم فى هذه الحادثة وعدوها من الانتصارات المهمة

وبعد انسحاب الغالبين عاد الى رومة من هاجر من اهلها ولما جدوها خاوية على عروشها وقد التهمت النار اغلب منازلها ارتأى بعضهم تركها ونقل من بقى سكانها الى مدينة (فايه) واتخاذها عاصمة لهم لكن لم يوافقهم الباقون ولا أعضاء السناتو بل قرروا البقاء فى رومة واعادة مبانيها الى سابق حالها ثم تقرر منح الحقوق الرومانية الى اهالى فايه وكاپنيه وفاليريا المفتتحة حديثاً لزيادة عدد الرومانيين وتعويض من نقص منهم اثناء هذه الحرب التي كادت تكون القاضية عليهم وعلى مدينتهم الباقية الآن رغما عن تتابع الفاتحين واختلاف المغيرين

ومن ثم اهتم الجميع فى اعادة بناء المعابد والاماكن العمومية فضربت لذلك الضرائب الفادحة واضطر الفقراء للاستدانة بالفوائد الباهظة فاشتد الاعسار وزج كثير من المعسرين فى السجون لعدم امكانهم القيام بدفع ماعليهم من الديون كما حصل بعد الحروب التى

اعقبت تأسيس الجمهورية

فاراد احد الاشراف واسمه منليوس ان ينتهز هذه الفرصة المناسبة لاسمالة الاهالى اليه للحصول على احدى الوظائف العالية ان لم تكن انظاره تطمح الى الاستئثار بالسلطة وتضحية استقلال وطنه على هيكل اغراضه فدفع ديون اربعمائة نفس من المسجونين وتظاهر بالدفاع عنهم وحضهم على مقاومة الاغنياء وعدم دفع ديونهم اليهم فتوجهت اليه الظنون وخيف ان يكون قصده غير صالح فاتهمه بعض نواب الامة كما اتهم كراسوس وسپوريوس من قبله الا انه لما حضر للمحاكمة عدّد الوقائع التى انتصر فيها على الاعداء وماحازه من علامات الشرف واظهر اثار ما اصابه من الجروح فى الدفاع عن وطنه فبرئت ساحته. ثم اتهم ثانيا وفاز اعدائه عليه فحكم عليه بالاعدام فالتجأ مع انصاره الى قلعة الكابيتول لمقاومة الحكومة وعند ماكان واقفا بقرب صخرة (ترپيا) التى يلقى من شاهقها كل خائن لوطنه دفعه احد من كان حوله من اعلاها فسقط هشيما وبذلك انقضت هذه الفتنة وهدم بيته كما كانت العادة

﴿ حصول الشعب على المساواة فى الحقوق السياسية ﴾

ولما انقضت الازمة الشديدة التى اعقبت جلاء الغاليين عن رومة وانتهت فتنة منليوس بالكيفية السابق شرحها وعادت الاحكام الى نظامها الاصلى وهدأت الخواطر اتجهت الافكار الى محو ما كان باقياً للاشراف من الامتيازات والاستئثار باهم الوظائف وتقرير المساواة بين افراد الشعب بدون تمييز بين الطبقات بكيفية تجعل مشاركة الاهالى فى الوظائف العالية مشاركة حقيقية لا وهمية كما حصل عند تعديل نظام الحكومة فى سنة ٤٤٤ ق ـ م بالطريقة التى اتينا على تفصيلها فى موضعه فقام كل من لسنيوس استولون وسكستيوس حين انتخبا نائبين عن الشعب (تريبان) فى سنة ٣٧٦ وقدما مشروع اصلاح جاء فيه اولا — ان لا ينتخب النواب الحربيون من الاشراف وغيرهم الامر الذى جعل انتخابهم من غير الاشراف نادراً جدا بل ينتخب قنصلان كما كان قبل سنة ٤٤٤ بشرط ان يكون أحدهما من الاشراف والآخر من الاهالى

ثانيا — ان لا يستحوز أحد على اكثر من خمسين فدانا رومانياً[1]

---

(١) عبارة عن ١٢٦ هكتاراً فرنساوياً والهكتار يساوى عشرة آلاف مترا مربعاً اى نحو فدانين مصريين وثلث (الفدان المصرى يساوى ٤٢٠٠ متراً مربعاً)

من أطيان الحكومة وان لايطلق فى المرعى العمومية اكثر من ماية رأس من البقر او خمسمائة من الاغنام وان يعطى لكل رومانى فقير مايوازى هكتارا وثلاثة أرباع من الارض وان كل من يستغل جزءاً من أراضى الحكومة يؤخذ منه عشر محصولها ماعدا شجر الزيتون والكروم فيؤخذ خمس محصولها وان يستعمل هذا الايراد فى ترتيب ماهيات لافراد الجيش

ثالثاً — ان تحقق ديون الاهالى وذلك بان كل ما دفع عنها من الفوائد يخصم من الاصل ويقسط الباقى على ثلاث سنوات فعارض الاشراف حفظا لحقوقهم السياسية وديونهم واصر كل من الطرفين على عدم التسليم للآخر لكن بالطرق القانونية لا الثورية الموجبة لتفرق الشعب وانقسامه على بعضه واراقة الدماء التي يحق الحفاظ عليها لمحاربة الاعداء فقط . فاعاد الشعب انتخاب نائبيه اللذين قدما هذه المشروعات الثلاثة عشر سنوات متواليه رغما عن معارضة الاشراف وكانا فى كل سنة يقدمان مشروعاتهما ويلحان فى طلب تقريرها مع معارضة بعض زملائهما لهما بمساعى ودسائس الاشراف واعضاء السناتو واخيرا مل الشعب من الانتظار واظهر رغبته فى قبول تقرير مشروعى الاراضى والديون فقط وارجاء مشروع المشاركة في وظيفتى القنصلية لفرصة مناسبة فعارض سكستيوس وقال بقبول المشروعات الثلاثة معا او رفضها معا اذ ان فصلها عن بعضها بعد المثابرة عشر سنوات مما يحط بقدر

الشعب فى اعين الاشراف ويحملهم على الظن بان الاهالى لايقوون على الثبات امام معارضتهم وتكون نتيجة ذلك عدم تقدير طلباتهم فى المستقبل حق قدرها والمماطلة في قبولها حتي يسأم الشعب ويتركها وتبقى القوة والسلطان للاشراف

وفى سنة ٣٦٧ توسط القائد الشهير كاملیوس واقنع السناتو بضرورة التصديق على هذه الطلبات العادلة حتى تحصل الامة على حقوقها ولايبقى ثمة سبب للشقاق والانقسام فصدق عليها وانتخب سكستيوس أول قنصل من الاهالى وزال الخلاف وانتهى التنازع على السلطة بعد ان استمر نحو مائة وخمسين سنة وأقام كاملیوس تذكارا لذلك هيكلا للمعبود الذى يمثل الوفاق والاتحاد

ولما صادق السناتو على قبول غير الاشراف فى وظيفة القنصلية سلخ عنها بعض الاختصاصات المهمة وخصها بالاشراف واوجد وظيفة (پريتور) وجعل من اختصاصاتها ادارة القضاء وتفسير المسائل القانونية مع حق الفصل فى القضايا

وفى سنة ٣٦٥ أنشأ ادارة البلدية وخصصها كذلك بالاشراف وجعل من شؤنها ملاحظة الشوارع واقنية جلب المياه للمدينة والمحافظة على المبانى العمومية وملاحظة الاعياد والاحتفالات والالعاب الاهلية وبالاختصار كانت اختصاصاتها تقرب من اختصاصات المجالس البلدية الموجودة بقطرنا الآن فبقى للقناصل بعد سلخ هذه الاختصاصات قيادة الجيوش ورئاسة السناتو والخدمة العسكرية الا ان حق تعيين

حاكم مطلق فى الظروف الحرجة بمعرفة السناتو انقص من اهمية الامتياز الجديد الذى منح للاهالى لان كان يستعمل هذا الحق عند الانتخابات العمومية للتأثير على المنتخبين وكذلك فى الحروب المهمة حتى لا يحتفل بانتصار فتصل من الشعب بالطريقة المتبعة غيرة من الاشراف على هذا الامتياز القديم ولقد اكثر السناتو من استعمال هذا الحق فعين اربع عشرة دكتاتورا من سنة ٣٦٤ لسنة ٣٤٣ اى فى مدة احدى وعشرين سنة

وفى اثناء ذلك حصلت حوالى رومة عدة حروب كان النصر النهائى فيها للرومانيين بعد ان هربوا عدة مرات ففى سنة ٣٦٢ تألب اللاتينيون عليها وفازت قبائل الهرنيك على جيوشها وقتلوا قائدهم

وفى سنة ٤٦٠ اغار الغاليون[1] ثانيا على ارباض المدينة ووصلوا الى احد ابوابها مدحورين . وفى سنة ٣٥٧ هاجموا سكان مدينة تركوينيا وهزموا جيوشها وقتلوا قائدها وذبحوا ٣٠٧ جنديا من الاسرى قربانا لالهتهم ثم هزموا مرارا بين سنة ٣٥٦ وسنة ٣٥٠ واضطروا فى هذه السنة لعقد معاهدة صلح مع رومة لمدة اربعين سنة . وفى سنة ٣٥٦ عاود الغاليون الكرة عليها فانتصرت عليهم بمساعدة اللاتينيين الذين راوا أخيرا ان الاتحاد مع الرومانيين على محاربة هؤلاء الاجانب

(١) عبرنا فى الملزمة السابقة عن الغاليين بلفظة الجلالقة وهو غلط والحقيقة ان الجلالقة اسم اطلقه العرب على سكان القسم الشمالى من جزيرة الاندلس الذي يسمونه جليقية ويسميه الافرنج Galicie فالجلالقة امة والغاليون امة أخرى

اضمن لاستقلالهم واولى من الانقسام والشقاق . لكن لم تكن هذه الاغارة هى الاخيرة من قبل الغاليين بل جموا قواهم وهاجموها المرة الاخيرة فى سنة ٣٤٩ فانتصر الرومانيون عليهم هذه الدفعة نصراً مبيناً تحت امرة وقيادة ڤالريوس بين كامليوس الذى ردّ اغارتهم الاولى فلم يعودوا اليها وقد لقب هذا القائد بالغراب تذكاراً لحادثة يروونها ويغلب انها وهمية لا حقيقية لها وهى انه بارز احد قواد الغاليين فى اثناء القتال فنزل غراب على خوذته واخذ ينقره فى عينيه ويرفرف عليه بجناحيه حتى لم يتمكن من الدفاع عن نفسه وقتله ڤلريوس

وفى سنة ٣٤٥ فتح الرومانيون مدينة (سوره) احدي مدائن الفولسك فزال بذلك المانع الذى كان يعوقهم من التقدم الى اقليم (كمبانيا) التى كانت رومة تطمح الى الاستيلاء عليه لخصوبة ارضه ووفرة حاصلاته

وبهذه الانتصارات المتوالية والفتوحات المتتالية فى الخارج وحصول الشعب على المساواة فى جميع الحقوق السياسية تقريباً واستتاب الامن بسبب ذلك فى الداخل صارت الجمهورية الرومانية اقوى الولايات التى كانت تكوّن لما نسميه الان بمملكة ايطاليا وداخلها حب امتداد النفوذ والفتوحات الى ما وراء حدودها فساقت الجيوش الى جميع الحكومات المتأخمة لها وفتحتها شيئاً فشيئاً حتى ادخلتها تحت سلطانها وتعدتها الي غيرها كما سيأتي مفصلا ولنذكر الان بكل ايجاز واختصار الحروب التى كانت نتيجتها بسط سلطة رومة على جميع اقليم ايطاليا فنقول

﴿ فتح ايطاليا ﴾

(من سنة ٣٤٥ الى سنة ٢٧٢ ق — م)

تنقسم هذه الحروب التى استمرت ٧٣ سنة تخللها بعض سني صلح وسلام الى سبعة اقسام الاول من سنة ٣٤٥ الى سنة ٣٤١ وكانت نتيجته فتح مدينة (كابوه) — والثانى من سنة ٣٤٠ الى سنة ٣٣٨ وفيه تم اخضاع اقليم اللاسيوم موطن قبائل اللاتين — والثالث من سنة ٣٢٦ الى سنة ٣١١ وفي خلالها فتح اقليما اپوليا وكمپانيا — والرابع من سنة ٣١١ الى سنة ٣٠٣ وفيه اخضعت رومة كل قبائل الهرنيك والايك — والخامس من سنة ٣٠٠ الى سنة ٢٩٠ وفيه تم اذلال قبائل السمنيين واحتلال جميع اقاليم ايطاليا الوسطى — والسادس من ٢٨٥ الى ٢٨٠ وفيه فتحت أقاليم ايطاليا الشمالية ما عدا وادى نهر (پو) واحتل الرومانيون اراضى قبائل الاتروسك والامبريين والغاليين النازلين بايطاليا — والسابع من سنة ٢٨٠ الى سنة ٢٧٢ وهو يشمل حروب پيروس التي انتهت باحتلال الرومانيين لاقاليم ايطاليا الجنوبية المعروفة في التاريخ القديم باسم اغريق الكبرى وفتح مدينة ترنته أهم مدائن اليونان (الاغريق) فى ايطاليا

ولما كان ذكر الحروب بتفاصيلها وحذافيرها لا يفيد المطالع سوى الملال ولا يورثه الا الكلال اكتفيت بما ذكرته آنفاً من نتيجة

هذه الحروب فقط لعدم التطويل خصوصاً وان اغفالها لا يضيع من ثمرة الكتاب شيئا ما وحيث كان أهم الحروب ما حصل منها أخيراً مع الاغريق بقيادة زعيمهم پيروس ملك اپيروس الذى استدعته من بلاده لشهرته وشجاعته اردت ان اشرحها بالايضاح الكافى والبيان الشافى وتفصيل ذلك ان مدينة توريوم الواقعة على البحر بالقرب من مدينة ترنتة استغاثت بالرومانيين لما هاجمها بعض مجاوريها ولما طلبت سنة ٢٨٢ ان تكون تحت حمايتهم لبوا طلبها واعانوها على رد اغارة اعدائها عنها واقاموا فيها حامية من جنودهم لانجادها عند الحاجة فلم تنظر ترنتة الى هذا الاحتلال بعين الرضى بل عزمت على انتهاز أوّل فرصة لطرد الرومانيين من جوارها حفظاً لاستقلالها وخوفا من وصول ايديهم اليها

وبعد ذلك اضافت رومة الى حامية هذه المدينة اسطولا بحريا مركبا من عشر مراكب حربية وفى ذات يوم تجوّل هذا الاسطول حتى وصل الى مدخل ميناء ترنتة وكان الاهالى مجتمعون على الساحل فى احدى التياترات فلما رأوا مراكب الرومان مقبلة ظنوا انها تريد شن الغارة عليهم فأسرعوا الى مراكبهم وخرجوا لمحاربة مراكب الرومانيين فهاجموها بشدة واغرقوا اربعة منها واخذوا واحدة وقتلوا من بها ثم ساقهم الغرور الى مهاجمة مدينة توريوم وطرد حاميتها الرومانية منها بدون اعلان حرب فلما وصلت هذه الاخبار المكدرة الى رومة ارسلت سفيرا الى ترنته يطلب من اهلها رد المراكب المأخوذة وتقديم

الترضية اللازمة عن هـذا التعدى فاهانوا السفير واخرجوه من بلدهم بحالة غير مستحسنة فلم يسع رومة بعد هذه الاهانات المتكررة الا اعلان الحرب عليها وتجهيز الجيوش والكتائب لتأديبها والانتقام منها ولما اقتربت الجيوش الرومانية من ترنته ارسل قائدها الى اهلها يعرض عليهم الصلح اذا قاموا بالترضية المطلوبة فمال الاغنياء الى السلام وعارضهم الشبان والمتطرفون وابوا الا الحرب واستدعوا ابيروس من بلاد الاغريق ليرأس جيوشهم فاتى اليهم طمعا فى فتح ايطاليا الجنوبية وجعلها مملكة له واستصحب معه خمسة وعشرين الف مقاتل وعشرين فيلا ولما وصل الى ترنته امر بقفل التياترات ومحلات الملاهى العمومية وجبر جميع الاهالى على الانخراط فى سلك الجندية والتمرن على الاعمال العسكرية فهاجر كثير منهم لحبهم للملاذ وبغضهم للتقشف والتعب ولتوهمهم ان هذا الاجنبي يدافع عنهم وهم مرتاحو البال منغمسون فى الملاهى والمفاسد . فخشى بيروس شر العاقبة وعرض الصلح على الرومانيين فرفضوه بكل إباء وشهامة غير قابلين توسط هذا الاجنبي فى شؤون الجزيرة الايطالية التى كانت رومة تبذل جهدها فى نشر لوائها عليها وعقدوا الخناصر على مكافحة هذا الدخيل والزامه العودة لبلاده

ولما لم يربدا من القتال خرج بمن اتي معه من الجنود والتقى بجيوش الرومانيين بقرب هرقليه وكادت تدور عليه الدائرة لولا ان ازعج الرومانيين منظر الافيال لعدم رؤيتهم لها من قبل فولوا مدبرين بعد ان قتل منهم نحو خمسة عشر الفا وقتل كذلك من جيوش بيروس

نحو اثنى عشر الف مقاتل اى نحو نصف جيوشه ولتحققه من عدم اقتداره على استمرار الحرب بباقى جيوشه طلب الصلح ثانياً من رومة وارسل اليها سينياس الشهير بالفصاحة وقوة الحجة فسافر اليها حاملا هدايا فاخرة لاعضاء السناتو وزوجاتهم فلم تقبل منه الهدايا ولم تفده فصاحته بل طلب السناتو جلاء پيروس وجنوده عن ايطاليا اولا ثم ينظر بعد ذلك فى أمر الصلح وكلفوه بالرجوع الى مرسله بدون امهال وتبليغه ذلك والا تزحف الجيوش الرومانية لطرده

فعاد سينياس الى معسكر پيروس مقتنعا بوجوب الجلاء عن هذه البلاد عاجلا لما شاهده من استعداد الرومانيين واتحادهم على قتاله لأخر نقطة من دمهم لكن لم يصغ پيروس لنصائحه بل زحف خلسة بقليل من رجاله ومرّ من بين جيوش الرومانيين قاصداً مدينة رومة نفسها مؤملا الوصول اليها قبل ان يصل الرومانيين خبره فيستعدوا للدفاع عنها وصار ينهب كلما يمر عليها فى طريقه من القرى والبلدان لكن لما اقترب من رومة وجد اهلها قد استعدوا للقائه وكادت الجيوش التى اقتفت اثره تقطع عنه خط رجعته فعاد مسرعا الى ترنتة مكتفياً بما اكتسبه من الغنائم وجمعه من الاسلاب

وفى ربيع سنة ٢٧٩ حاصر مدينة تسكولم فأتت الجيوش الرومانية لانقاذها وحاربت جيوش الاعداء بكل بسالة واقدام وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لكن لم يقووا على الانتصار عليها والزامها رفع الحصار عن المدينة لخوف خيولهم من منظر الافيال

ومع ذلك فكان پيروس هو الخاسر فى هذه الواقعة لموت أغلب جنوده التى أتي بها من بلاد اليونان وعدم قيام الاهالى المستنجدين به لمساعدته فاضطر لرفع الحصار عن تسكولم بدون قتال آخر وعاد الى ترنته متحيراً فى أمره

وبينما هو على هذا الحال اذ اتاه وفد من اليونان النازلين بجزيرة صقليه يطلبون منه المعاونة والمساعدة على رد اغارة القرطاجيين عنهم فسافر بكل سرعة لنجدتهم مع من بقى بجيوشه مؤملا النصر بالسهولة على القرطاجيين والعودة لمحاربة روما بمساعدة يونان صقليه فنزل بمدينة سيراكوزة وكان القرطاجيون محاصرينها ومضايقين عليها الخناق فحارب المحاصرين وقهرهم ثم تبعهم الى داخل الجزيرة مقتفياً اثرهم من مدينة لاخرى وقبل الاجهاز عليهم وطردهم من الجزيرة وقع الخلاف بينه وبين محالفيه المستنجدين به فتركهم وعاد الى جنوب ايطاليا لتتميم مشروعه الاول وهو امتلاك إقليم ترنتة وما جاوره من البلاد وعند اجتيازه بوغاز مسينه الذى يفصل جزيرة صقليه عن بلاد ايطاليا هاجمته سفن القرطاجيين واغرقوا بعض سفنه بمن فيها واستولوا على ماكان معه من الاموال والاشياء الثمينه ولم ينج هو وباقى سفنه الا بكل مشقه .

ولما عاد الى ترنته لم يمهله الرومانيون ريثما ينظم مابقى من جيوشه بل داهموه بالقرب من مدينة بنفنوتم (Benvonutum) وانتصروا عليه نصرا مبيناً لم تقم له بعده قائمه وكان ذلك لتعود

الرومانيين وخيولهم على منظر الافيال واحتفل بالقائد كوريوس الذى كان قائدا للجيوش الرومانيه فى هذه الموقعة احتفالا عظيما حين عودته الى رومة فدخلها على مركبة تجرها أربعة من الافيال التى أخذت من جنود پيروس ضمن الغنائم ووصل صدى هذا الانتصار الى مصر فارسل ملكها بطليموس الملقب فيلادلف اى محب اخوته وفدا الى رومه لتهنئة السناتو والسعى في ابرام معاهدة بين الحكومتين هذا

اما پيروس فلما لم يبق له امل فى تنفيذ مشروعه عاد الى بلاده بخفى حنين مع من بقى من جيوشه تاركا فى مدينة ترنته حامية قليلة تحت امرة أحد ضباطه المسمى ميلون وأثار هو نيران الفتن فى بلاد مقدونية ونودى به ملكا عليها ثم قتل سنة ٢٧٢ عند محاصرته مدينة (ارجوس) بعد ان قضى حياته فى الحروب والفتن والسعى للحصول على بقعة من الارض والتملك عليها .

وبعد انسحاب پيروس ورجاله من بلاد ايطاليا استمرت الحرب بها بين الرومانيين والقبائل الساكنة بجنوب ايطاليا مدة من السنين انتهت بانتصار الرومانيين واستيلائهم على مابقى مستقلا باقاليم الجنوب وبلاد اتروريه

وفى سنة ٢٧٢ ق — م اضطر ميلون قائد حامية ترنته الى تسليمها للرومانيين وبذلك امتد نفوذهم الى اطراف الجزيرة الايطالية واشرب الشعب الروماني حب الحروب والفتوحات وصار شعبا حربيا اكتسب جميع الصفات التى تؤهله لذلك في هذه الحروب المستمرة

ضد الاجانب . وسنرى فيما يأتى ماوصلت اليه هذه الدولة من الاتساع وبسطة النفوذ حتى امتد ظل لوائها على جميع الجهات المسكونة في ذلك العهد تقريبا . وكانت اول حروبها الخارجية مع حكومة قرطاجه الباقيه اطلالها للان بقرب مدينة تونس الخضراء ولا بأس من ان نذكر طرفا من كيفية ترتيب الحكومة الرومانية وما حصل فيها من التغيير والتبديل اثناء المدة التى كانت فيها نيران الحرب مشتعلة لفتح جنوب ايطاليا قبل الشروع في تفصيل حروب رومه وقرطاجه وبيان تاريخ هذه الدولة التى لم يسبق ذكرها في هذا الكتاب

﴿ ادارة وتنظيم الاقاليم الايطالية ﴾

قد اتبعت رومة مع الامم التى فتحت بلادها وضمتها اليها سياسة مبنية على الحكمة وبعد النظر والتبصر فى العواقب فلم تعاملهم معاملة ملوك وحكومات تلك الازمان الغابرة لمن تؤخذ بلادهم اى معاملة الاسترقاق والتملك الحقيقى على الاموال والانفس ولم تعاملهم بضد ذلك مرة واحدة اى لم تمنحهم جميع ما للرومانيين الاصليين من الحقوق بل اتبعت طريق الرشاد والسداد وعاملت كل أمة بما

يناسبها ويضمن بقائها ضمن الجمهورية الرومانية مراعية فى ذلك بعدها عن مدينة رومة وقربها منها ودرجة ولائها لها فاعطت القبائل المجاورة لها جميع حقوق الرومانيين ليكونوا حاجزا بينها وبين أعدائها البعيدين وشكلت منهم اثنى عشرة قبيلة رومانية جديدة وبذلك بلغ عددها ثلاثة وثلاثين قبيلة لكنها وزعت أصوات الانتخاب بينها بكيفية تجعل الاغلبية دائماً لسكان رومة الاصليين لحفظ نفوذهم وسيادتهم على باقى الامم المنضمة اليهم حديثاً بطريقة غير محسوسة

ومنحت لبعض مدن اللاتين امتيازات خصوصية كانتخاب حكامها وقضاتها وتوزيع الضرائب بين أهليها وسهلت لهم التجنس بالجنسية الرومانية فجعلتها حقا لكل حاكم أو قاض قضى مدة تقلده الوظيفة بكل أمانة وصداقة ومكافئة لكل من يأت عملا جليلا نافعاً لابناء وطنه وغير ذلك من الطرق المسهلة للحصول على ما للرومانيين من الحقوق اذ كانت تمنح باقى المدن والامم المفتتحة حديثاً تارة حق الاتجار مع الرومانيين والتعامل على حسب نصوص القانون الرومانى وأحياناً حق التزاوج معهم وآونة جميع الحقوق الا حق الانتخاب حسب الظروف وبالاختصار فانها لم تتبع مع رعاياها طريقة واحدة بل طرقا متنوعة تتغير تبعاً للاحوال والمقاومة التى حصلت منها وقت الفتح. وبعض الامم لم تمنح شيئاً من ذلك بل بقيت بالنسبة للرومانيين الاصليين كنسبة غير الاشراف لهم قبل حصول هؤلاء عن جميع الحقوق كما سبق بيانه فى موضعه

واتخذت رومة طريقة أخرى لتأييد سلطتها على هذه القبائل وعدم تمكينهم من التحالف والاتحاد ضدها وهى اقامة مستعمرات من الرومانيين بين ظهرانيهم تكون كحاميات عسكرية ضد كل طارئ خارجى أوداخلى ونشر عوائد الرومانيين ولغتهم بينهم من جهة أخرى وأخيراً بث الدم الرومانى فى عروقهم بالتزاوج والاختلاط الحقيقى فيزيد الارتباط بينهم حتى بعد زمن يسير تصير هذه الامة أوالمدينة المغلوبة رومانية حقيقية فى الدم والاخلاق واللغة والافكار والمشارب ويمحى ما كان بينها من الاختلاف والتباين فى جميع ذلك وتصير سكان الجزيرة الايطالية أمة واحدة رومانية عزيزة الجانب قوية الشوكة يمكنها الاغارة على ما وراء حدودها من الايالات والممالك وصد كل من يتعدي حدودها من الغزاة والفاتحين ولتسهيل المواصلات بين هذه المستعمرات أو النقط العسكرية وبين أطراف البلاد من الجنوب الى الشمال ومن الشرق الى الغرب وتسهيل ارسال الجنود الى اى نقطة يفاجئها العدو أنشأت رومة طرقا عسكرية متسعة ومرصوصة بالاحجار المنحوتة الصلبة وأقامت الجسور والكبارى الحجرية على الجداول والانهار التى تقطعها هذه الطرق فكانت فيما بعد من أهم معداتها الحربية كالسكك الحديدية فى عصرنا هذا ولم تزل آثارها باقيه للآن فى جميع البلاد التى فتحها الرومانيون شاهدة لهم بحسن الادارة ودقة التدبير

﴿ الحرب البونيقية الاولى ﴾

هى الحرب التى دارت رحاها وحمى وطيسها بين الجمهورية الرومانية وجمهورية قرطاجة بسبب ادعاء كل منهما السيادة على البحر المتوسط الذى كان مرسحاً لسفن قرطاجة التجارية تشق عبابه لنقل السلع والمتاجر الى جميع البلاد والثغور الواقعة على شواطئه فان قرطاجة كانت السيدة الوحيدة على هذه الطريق التجارية ولما ازدادت فتوحات رومة ووصلت الى أطراف ايطاليا الجنوبية واحتلت مدائن ترنته وناپولى وغيرهما من الثغور المهمة واخذت فى انشاء السفن الحربية والتجارية خشيت قرطاجة مزاحمتها لها فى التجارة التى كانت مورد ثروتها وينبوع غناها كما كانت أساس حياة بلاد فنيقيه التى خلفتها قرطاجة فى مهنة نقل الحاصلات بين الاقاليم وبعضها مع انها كانت احدي مستعمراتها العديدة المنتشرة على سواحل البحر المتوسط وبعض سواحل المحيط الشمالية ولنذكر هنا لمحا من تاريخها ونظامها قبل تفصيل ماحصل بينها وبين رومة من الحروب التى كانت نتيجتها خراب قرطاجة وسيادة رومة على البحار فقط بل على جميع أقطار أوروبا وشمال افريقية وغربى أسيا وجعل البحر المتوسط بحيرة رومانية تحيط املاكها بها من جميع الجهات فنقول

كانت هـذه المدينه عبارة عن احدي الحلقات المكونة لسلسلة المستعمرات التي أسستها فنيقيه على جميع طرقها البحرية الا أن موقعها الجغرافى بالقرب من جزيرة صقليه وفي منتصف البحر المتوسط وعدم وجود جبال خلفها تمنع امتدادها فى الداخل ووجود سهول اقليم تونس الخصبة في جنوبها وغير ذلك من المزايا الطبيعية ساعدها على النمو والارتقاء أكثر من مدينة (صور) عاصمة الفينقيين نفسها ولما ظهرت أمة الاغريق في العالم وتغلبت تجارتها على تجارة صور في شرق البحر المتوسط ازدادت تجارة قرطاجه الجزؤ الغربى منه وأخيراً لما اضمحل حالها وسقطت فى هوة الانحطاط والتقهقر حين فتحها الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق م سادت قرطاجه على البحر المتوسط وملكت زمام تجارته وبلغت من الغنى والثروة مبلغاً لم تبلغه صور ولا غيرها من قبلها وفتحت سواحل البلاد المكونة الآن لولاية الجزائر ومراكش واسپانيا وجنوب فرنسا واقامت فيها المراكز التجارية لتبادل التجارة مع أهاليها المتغمسين فى الهمجية والوحش واحتلت جميع الجزائر الموجودة فى هذا القسم من البحر المتوسط مثل سردينيا وكورسيكا ومالطه وجزائر باليار ولپاري ونحو ثلثى جزيرة صقليه لحفظ مركزها التجارى وسيادتها البحرية

ولما كانت هذه الامة أمة تجارة واكتساب لا أمة حرب وجلاد كانت لاتعد الجندية فخراً ولا التفاني في الدفاع عن الوطن

مجداً فكانت تجند الجيوش من الاجانب المستأجرين الذين لايهمهم الا قبض الراتب فى ميعاده وينضمون للفريق الذى يدفع لهم راتباً أكثر من الآخر نعم ان القواد والضباط كانوا من القرطاجيين الا أن ذلك لا يكفى لان تعادل الجيوش المؤلفة بهذه الصفة الجيوش التي أفرادها من نفس الامة وبالدفاع عنها تدافع عن أراضيها وعائلاتها

وأما حكومة قرطاجه فكانت جمهورية الا ان السلطة لم تكن فيها للشعب بأسره بل فى قبضة بعض عائلات تتوارثها خلفا عن سلف كما كانت رومة فى بادئ أمرها لكن أدركت رومة ضرورة مشاركة جميع الاهالى فى ادارة شؤون البلاد فمنحتهم الحقوق السياسية تدريجيا كما رأيت بل ومنحت نفس هذه الحقوق والمزايا كلها او بعضها للاجانب المفتتحة بلادهم ونعم مافعلت لأنها كوّنت بهذه الطريقة الحكيمة أمة واحدة عزيزة قوية ملكت العالم ولم تفقه قرطاجه لسوء عاقبة حصر السلطة فى بعض العائلات واستمرت على احتقار الشعب وعدم منحه شيئاً من السلطة ومن جهة أخرى اساءت معاملة من فتحت بلادهم فكانت تلزم البعض بزراعة صنف معين أو عدم زرعه مراعاة لصالحها التجاري بدون نظر الا مايعود على هذه الامم التعيسة من الخراب والدمار.

وكان يرأس حكومة قرطاجة رئيسان عظيمان يعادلان قناصل رومة فى الاختصاص وكان لقبهما الرسمى (سوفيت) ويليهما

مجلس سناتو مؤلف من خمسماية عضواً ينتخبون من عائلات الاشراف دون غيرهم وله ما لسناتو رومة من الاختصاصات تقريبا وتنتخب من بين اعضائه لجنة من ماية عضو فقط ينتخبون لمدة حياتهم لأدارة جميع الاعمال تحت رئاسة السوفيت وكان كل فرع من فروع الحكومة من اختصاص لجنة صغرى تنتخب من السناتو للنظر فى شؤونها وعرض قراراتها على مجلس الماية فيعتمدها أو يرفضها على حسب ما يرى له هذا مجمل نظامها الداخلى ويري لاول نظرة انه أقل بكثير من نظام رومة فان هذه كانت تغيره أو تعدله تبعاً لظروف الحوادث وطلبات الشعب وتلك لم تصغ لطلبانه ولم تحسن معاملة الامم التى فتحت بلادها

ولذلك كان من المحقق تغلب رومة على قرطاجه ولو طال الحرب اذ الجنود المؤجرة لايكون لها من صفات الثبات والوطنية مالالجنود المأخوذة من نفس الامة ولنذكر الآن أسباب انتشاب القتال بين الجمهوريتين

ان جزيرة صقلية كانت منقسمة بين ثلاث حكومات متضادة الاول تابع لهيرون صاحب سيراكوزه والثاني في قبضة قبيلة المامرتايين وعاصمتهم مدينة مسينه والثالث وهو الاهم فى حوزة القرطاجين وفى سنة ٢٦٥ حارب صاحب سيراكوزه قبيلة المامرتايين لقمعهم ومنع تعديهم على البلاد التابعة له بالنهب والسلب فقهرهم وكاد يدخل مدينة مسينه لولا تعرض القرطاجين له وفى أثناء ذلك

أرسلت هذه القبيلة وفداً الى رومة تستعين بها على صاحب سيراكوزه فأسرعت بارسال الجيوش لنجدتها متخذة هذه الفرصة سبباً لوضع قدمها في جزيرة صقلية وطرد القرطاجيين منها واستخلصت مدينة مسينه من هييرون وكان قد احتلها بحيلة حربية فاتحد مع القرطاجيين على مكافحة الرومانيين خوفاً من امتلاكهم الجزيرة شيئاً فشيئاً وحاصروا مسينة لاخراج الرومانيين منها ومنع القرطاجيون وصول المدد الى الرومانيين من ايطاليا باحتلالهم بوغاز مسينه لكن توصل القنصل اپيوس كودكس من اجتياز البوغاز في ليلة حالكة مع عشرين الف مقاتل وانتصر على المحاصرين وتبع هييرون الى مدينة سيراكوزه وابتدأ في حصارها وأرسل الى رومة يطلب الامداد فأرسلت اليه خمسة وثلاثين الف مقاتل فشدد الحصار على المدينة فعرض هييرون فى سنة ٢٦٤ ان يعاهدهم على دفع مبلغ جسيم وعلى أن يكون حليفاً لرومة ضد القرطاجيين فقبل الرومانيون ذلك وبقي حليفاً لهم مدة خمسين سنة

ومن ثم تفرغ الرومانيون لمحاربة قرطاجة وانتشروا فى جميع انحاء الجزيرة واحتلوا أغلب مدنها حتى لم يبق مع القرطاجيين الا بعض الثغور البحرية الا انهم من جهة اخرى كانوا سائدين على البحار ويشنون الغارة على شواطئ ايطاليا ويمنعون الاتصال بينها وبين الجزيرة ولذلك قرر سناتو رومة سنة ٢٦١ بضرورة محاربتهم بحراً لمنع تعديهم على الثغور واقلاقهم راحة سكانها وتعطليهم التجارة

وأمر بانشاء السفن الحربية فانشأت مائة وعشرين سفينة في مدة يسيرة على مثال سفينة قرطاجية القتها الرياح على شواطئ ايطاليا وعين القنصل كورنيليوس سيپيون قائداً عاماً لها لكن لعدم تمرن الرومانيين وتدربهم على القتال البحرى انهزمت الدونانمة الرومانية فى سنة ٢٦٠ وأخذ سيپيون أسيراً مع سبعة عشر سفينة ثم مالبثوا ان أحسنوا ادارة السفن وتفننوا فى ضروب القتال وانتصروا على القرطاجيين نصراً مبيناً تحت امرة دويليوس

وينسب بعض المؤرخين هذا الانتصار الى اختراع غريب ابتدعه هذا القائد البحري وهو جسر من الخشب يركب فى مقدمة كل سفينة وبه عدة مشابك وكلاليب من حديد بحيث لما تقترب السفن من سفن الاعداء تلقي هذه الجسور عليهافتشتبك معها وتنتقل الجنود اليها بكل سهولة وبذلك تصير الحرب حرباً برية لابحرية ولايخفى ما كانت تمتاز به الجنود الرومانية على أعدائها من الثبات وحسن النظام وهى رواية تحتمل الصدق والكذب نقلناها على علاتها وكافأ السناتو هذا القنصل بان أقام في الفورم عاموداً تذكاراً لهذه الحادثة نقش عليه تاريخها بجانب اسمه ومنحه عدة امتيازات أخرى

ثم انقسمت الدونانمة الرومانية قسمين تبع أحدهما مابقي من سفن قرطاجه الى جزيرة سردينيا حيث اجهز عليها وشرع الرومانيون من ثم فى فتح هذه الجزيرة وجزيرة كورسيكا المجاورة لها والقسم الثانى جعل سواحل جزيرة صقلية ميداناً لاعماله

ولما تحقق السناتو ضعف حكومة قرطاجة وعدم انتظام داخليتها ووقوع الفشل فيها عقب انتصار الرومانيين وانتشار سفنهم فى البحر المتوسط قرر تجهيز دونانمة أخرى اكثر انتظاماً واستعدادا لمحاربة قرطاجة في مياهها الاصلية وانزال الجنود الى البر لمحاصرتها براً وبحراً فأنشئت ثلاثماية وثلاثين سفينة جديدة انزل اليهامايةالف بحرى واربعين الف جندى برى تحت قيادة القنصلين مانليوس فولسو واتليوس ريجلوس

ولما بلغ قرطاجه خبر استعداد هذه السفن وسفرها قاصدة بلادها ارسلت لملاقاتها ومنعها من الوصول ثلاثماية وخمسين سفينة فتقابلت الدونانمتان بقرب مدينة اكنوم واقتتلتا قتالا عنيفاً كانت الدائرة فيه على القرطاجيين (سنة ٢٥٦ ق — م) ثم سارت السفن الرومانية قاصدة شواطئ افريقية فوصلتها بدون مقاومة ونزل القنصلان والجنود البرية الى الشاطئ بالقرب من مدينة كاپيبا وانتشروا فى جميع الانحاء كالجراد ولم يمض قليل زمن حتى احتلوا مدائن لاتحصى وغنموا مغانم وأموال كثيرة وأسروا نحو عشرين الف مقاتل

ثم استرجع السناتو القنصل منليوس وأغاب الجنود وأبقى ريجلوس مع خمسة عشر الف مقاتل وخمسماية خيال فاستمر مع هذا الجيش القليل فى فتح القري والبلدان ووصل الي مدينة تونس التى لاتبعد عن مدينة قرطاجة باكثر من ميلين اثنين فقط فخشيت

الحكومة من ان يحاصر المدينة نفسها ولا قدرة لها على الدفاع وعرضت الصلح على ريجلوس فاشترط شروطاً لايمكن قبولها لشدتها واجحافها باستقلال قرطاجة ولذلك فضلت الحرب لآخر رمق من حياتها على قبول هذه الشروط وأسعدها الحظ بوجود قائد ماهر لقدموني الاصل اسمه كسانتيب ضمن جيوشها المؤجرة المؤلفة من خليط الاجناس المختلفة والامم المتباينة فأعاد الى جيوش قرطاجة بعض الانتظام وبث فيهم روح الحماسة نوعاً وحارب الرومانيين فى عدة وقائع صغيرة كان الفوز له فى أغلبها ولم يجسر على محاربتهم بكل جيوشه دفعة واحدة خوفاً من الخيبة والانهزام

ولما تدربت جيوشه على فنون القتال في هذه الوقائع المتعددة وتعودت على الوقوف امام الرومانيين فى مواقع النزال هجم بكل قواه على مابقى مع ريجلوس من الجيوش وبدد شملهم ومزقهم كل ممزق وأخذ ريجلوس أسيراً وتخلصت قرطاجة من الرومانيين فانهم اخلوا بلادها بعد وقوع ريجلوس فى الاسر وانتقلت الحرب الى جزيرة صقلية وشواطئ ايطاليا

وبقيت الحرب بعد ذلك سجالا بين الطرفين الى سنة ٢٥٠ وفيها انتصر الرومانيون على اعدائهم فى واقعة (پانورم) بكيفية أوجبت قرطاجة ان تطلب الصلح ثانياً فرفضته رومة واستمر القتال الى سنة ٢٤٢ التى هزم فيها القنصل لوتاتيوس كاتولوس الدونانمة القرطاجية بقرب جزائر ايجات الواقعة على شاطئ صقلية من جهة

الغرب وأغرق أغلب سفنها وأخذ باقيها بحيث لم تعد لقرطاجه قدرة على محاربة رومة بحراً ولا على اسعاف جنودها المحاربة فى صقلية بالرجال لوقوف السفن الرومانية فى طريقها فعرضت الصلح ثالثاً وبعد مخابرات استمرت نحو سنة تم الصلح بين الطرفين على ان تخلى قرطاجه جزيرة صقلية والجزائر المجاورة لها ولا تتعرض لاهاليها مطلقاً وتطلق سراح الاسرى بدون فدية وتدفع غرامة حربية توازي تسعة عشر مليون فرنكا من العملة الفرنساوية أى سبعماية وستين الف جنيهاً مصرياً تقريباً

وبذلك انتهت هذه الحرب بعد ان استمرت نحو ربع قرن خسرت قرطاجة فى اثنائها سيادتها على البحار ولحق تجارتها البوار والدمار وذاقت فيها رومة لذة الانتصار فسكرت بخمرة المجد والفخار وتاقت نفسها الى امتلاك البلاد والامصار لكن لم تقبل قرطاجة هذه الحالة الا بصفة مؤقتة لعجزها عن استمرار الحرب وتعطيل تجارتها التى عليها مدار ثروتها وأيقنت رومة كذلك ان هذا الصلح ظاهرى فقط وان لابد لقرطاجة من الاخذ بالثار واعادة ماافقدته من الاموال فضلا عن الشرف فى هذه الحرب فأخذ كل فريق يستعد للحرب ويتأهب له ليكون على استعداد عند انتشاب نيرانه ثانياً .

فابتدأت رومة بتنميم فتح جزيرة صقلية حتي لا يبقي لقرطاجة أمل فى استرجاعها فاتمت فتحها فى مدة يسيرة وجعلتها ولاية رومانية

وعينت لها حاكم يلقب (پريتور) مع حفظها استقلال بعض القبائل حفظاً موقتاً ثم احتلت جزيرتى سردينيا وكورسيكا وتم فتحهما فى سنة ٢٢٧ ق — م فصارت صاحبة السيادة الحقيقية والقول الفصل فى البحر المتوسط

ومن جهة أخرى وجهت أنظارها الى البحر الادرياتيكى الذى يفصل بينها وبين جزيرة البلقان الواقعة بلاد اليونان فى طرفها الجنوبى وانشأت فيه سفناً عديدة لمطاردة قرصان البحر الذين كانوا يعطلون تجارتها ويهاجمون مراكبها فى غدوها ورواحها الى هذه الجهات وكانت تسكن البلاد الواقعة على شاطئه الشرقي المقابل لسواحل ايطاليا أمة الأليّريين التي كان منها أغلب قرصان هذا البحر ولما كثرت الشكاوي للسناتو أرسل وفداً الى (تيتا) الوصية على هذه المملكة لصغر سن ابنها بينياس يطلب منها اتخاذ الطرق الفعالة لمنع أذى رعاياها عن الرومانيين فكان جوابها قتل أعضاء الوفد

فلما وصل رومة خبر هذه الفعلة الشنعاء أرسل اليها جيشاً جراراً في سنة ٢٢٩ ق — م احتل أولا مدينة قنسير بخيانة دمتريوس أحد قواد الأليّريين ومنها انتشرت الجنود الرومانية في طول هذا الاقليم وعرضه ودخلت أغلب مدائنه فاضطرت الملكة (تيتا) ان تسلم لرومة بطلباتها التى أهمها دفع جزية معينة والتنازل عن جزء ليس بقليل من أراضيها ورد ما كان لمدينتى قونسير وابولونيا اليونانيتين من الامتيازات وعدم جواز تعدى سفنها مدينة اسوس

وبهذه المعاهدة صار لرومة ولاية رومانية جديدة بالقرب من بلاد اليونان يمكنها الزحف عليها منها بكل سهولة عند سنوح الفرصة وصار البحر الادرياتيكي بحيرة رومانية لامتداد املاكها على شاطئيه الشرقي والغربي

ولما بلغ الملك بينياس رشده واستلم زمام البلاد أراد التخلص من سيطرة الرومانيين فهزم وكانت هذه الحركة آخر ما أتته هذه الامة لاسترجاع مافقدته من حريتها واستقلالها

﴿ اغارة بعض قبائل الغاليين على رومة ﴾

ثم طلب النائب فلامينوس من السناتو تقسيم اراضي الحكومة الواقعة في اقليم سينون على حدود بلاد غاليا الايطالية بين فقراء الرومانيين ليكونوا حاجزا حصينا بين الغاليين وأملاك رومة فاضطرب الغاليون لذلك وخشوا من تعدي الرومانيين الحدود وطموح انظارهم الى الاستيلاء على السهول المتسعة النازلين وتألبوا مع جميع القبائل المجاورة لهم على محاربة الرومان واستنجدوا باخوانهم النازلين بغاليا الفرنساوية وساروا قاصدين مدينة رومة نفسها بقصد احتلالها كما حصل في السابق وكانت قوتهم مؤلفة من نحو خمسين الف راجل وعشرين الف راكب

ولما بلغ رومة خبر زحف هـذه القوة الهائلة عليها أخذت تستعد لملاقاتها بكل قواها فجمعت نحـو مليون جندى خرج منهم مائة وخمسون الف لمحاربة الاعداء قبل وصولهم اليها وبقى الباقون للدفاع عنها ومساعدة الجيش الاول عند مسيس الحاجة ثم استشاروا المنجمين فيما يجب عليهم عمله لاستعطاف المعبودات وحملهم على مساعدتهم على الاعداء فاجابوهم بضرورة ذبح اثنين من الغاليين قربانا لهم فصدعوا بهـذا الامر الوحشى المبنى على اعتقاد وهمى وخرجوا لملاقاة الغاليين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً متحدين على الدفاع عن وطنهم الى آخر نقطة من دمهم وانتظروا الاعداء على بعد ثلاثة ايام من المدينة فى نقطة حصينة ولما التقى الجيشان اقتتلوا قتالا شديدا استمر عـدة ساعات وكانت نتيجته انتصار الرومانيين وموت نحو اربعين الفا من الغاليين وكان ذلك فى سـنة ٢٢٥ ق — م لكن لم يكتف الرومان بهذا الفوز الذى خلص مدينتهم من هـذه الاغارة الجديدة بل قرروا فتح بلادهم الى جبال الالب لتكون حاجزا حصينا وحداً طبيعياً بينهم وبين بلاد غاليا الاصلية فارسلت الجيوش اليها تحت قيادة كورنليون سيپيون ومرسلّوس ففتحوا معظمها واحتلوا مدائنها مثل ميلانو وبارز القائد مرسلّوس ملك قبيلة الانسوبريين المسمى فندومار وقتله فاستسلمت هـذه القبيلة للرومان ثم أرسل السناتو عدة مئات من العائلات الرومانية لتأسيس عدة مستعمرات بين ظهرانيهم وتثبيت سلطة الرومانيين عليهم

وفى سنة ٢٢١ استولوا على اقليم (إستيريا) الواقع فى شمال بلاد اليريا للتمكن من ايصال املاكهم التى على شاطئ بحر الادرياتيك وللاغارة على بلاد اليونان فى المستقبل

وزيادة على جميع ماذكر من الفتوحات المهمة طمحت ايضاً رومة الى بلاد مصر والشام وجددت تحالفها مع ملوك البطالسة فى مصر وحصلت بين الحكومتين مخابرات بشأن ارسال جيوش رومانية الي الشرق لمساعدة الحكومة البطليموسية على محاربة ملوك انطاكية بالشام لكن لم يتم بينهما امر بهذا الخصوص وتأجل التداخل فى شؤون مصر والاستيلاء عليها الى فرصة أكثر مناسبة

فيتضح للقارئ ان رومة لم تضع الوقت بعد ابرام الصلح مع قرطاجة بل صرفت كل قواها لافتتاح مابقى من ايطاليا الشمالية لسد ابواب الغارات امام الغالبين واستولت على جزائر سردينا وكرسيكا وبعض الجزر الصغيرة المجاورة لها لمنع هجوم القرطاجيين على أراضيها من جهة البحر وجعلت البحر الادرياتيكى بحيرة رومانية باستيلائها على أقليمى إليريا وإستريا

وبذلك صارت آمنة من مفاجئة القرطاجيين لها ومستعدة لملاقاتهم لو أتوها من جهة غير منتظرة وكانت في استعداد عظيم لمحاربة هذه الجمهورية القائمة امامها والانتصار عليها حتى تكون هى الدولة الوحيدة في العالم وملكة البر والبحار ومالكة زمام الامصار بدون شريك منازع أو معارض أو مضارع

وحيث انتهينا من ذكر ماأتته رومة من الاعمال العظيمة والفتوحات الجسيمة في هذه المدة الوجيزة استعداداً لمنازلة جارتها وعدوتها ومناظرتها قرطاجة فلنبين الان ماأتته هي الاخرى لهذه الغاية نفسها وماحدث فيها من الحوادث المهمة ثم نشرح الحرب البونيقية الثانية واسبابها ونتائجها شرحاً يوقف القارئ على ماجريات هذه المناظرة الدوليه التاريخية القديمة فنقول

قد ذكرنا عند التكلم على حكومة قرطاجة ونظامها ان جيوشها لم تكن وطنية أهلية بل مؤلفة من مستأجرين مختلفي الاجناس متباينى الملل والنحل لاتجمعهم جامعة وطن أوجنس وظاهر ان تركيب جيوشها وتأليفها بهذه الصفة مما يجعلها أقل بكثير من حيث الغيرة والحمية من الجيوش الرومانية المؤلفة من الرومانيين دون غيرهم

وقد ظهر هذا الفرق العظيم في الحرب البونيقية الاولى وزادت مضاره بعد انتهاء حرب قرطاجة وقبولها طلبات رومة وذلك ان الحكومة عجزت عن دفع مرتبات الجنود في أوقاتها بسبب ما أصابها فى هذه الحرب المشؤومة ولما كانت هذه الجيوش لايهمها الا قبض الراتب (شأن كل أجنبي دخيل استخدم في غير وطنه) ولا ترثى لما أصاب قرطاجة من المصائب هاجت وماجت واكثرت من الشغب ثم أظهرت التمرد والعصيان وساعدها بعض الاهالى لتضجرهم من كثرة الضرائب ووفر المكوس واشتد الهياج في جميع الجهات التابعة لقرطاجة خصوصا في جزيرتي سردينيا وكورسيكا

الامر الذى ساعد الرومانيين على الاستيلاء عليهما بدون كثير عناء

وكان رؤساء الثورة كل من اسينديوس الايطالى الاصل وماتوس الافريقى ولما عمت الجيوش تقريبا تحيرت الحكومة فيما يلزم اتخاذه من التدابير وانقسم السناتو حزبين احدهما تحت رئاسة هاتون وكان يود مسالمة العصاة بأى طريقة والآخر يطلب اخضاعهم بالقوة وبعد جدال عنيف تغلب هذا الحزب الاخير باجتهاد اعضاء عائلة (برقة) فعينت الحكومة املكار احد زعماء هذه العائلة قائداً لمن بقي مصافيا لها من الجنود واباحت له اتخاذ الطرق الممكنة لقمع الثورة فابتدأ هذا القائد المدرب والسياسى المجرب في استحالة قبائل (النوميد) اليه حتى لا يمدوا العصاة بالمؤونة ثم حاربهم بشدة حتي ألزمهم رفع الحصار عن مدينة (اتيك) والابتعاد عن ضواحي قرطاجة وكان يعامل من يقع بين يديه من الاسرى بالحسني وزيادة ويغدق عليهم العطايا فترك كثير من جنود العصاة للانضمام اليه ولما خشى رئيسا الثورة من نتيجة فرار الجنود أمرا بقتل أسرى القرطاجيين فقتلوا وكانوا سبعمائة فعامل املكار أسراه بهذه المعاملة الوحشية ثم حصر أحد الجيشين الرافعين راية العصيان في مضيق حرج المسلك وشدد الحصار عليهم مدة طويلة حتى نفدت مؤونتهم وأكلوا من عندهم من الاسرى والعبيد ولما ضاق بهم الحال مالوا الى الصلح وطلب قائدهم اسينديوس مقابلة (املكار) ولما أذن له قصده ومعه اثنان من كبار ضباط العصاة وعرضوا عليه التسليم

فقبل مشترطاً ارجاع العصاة الى أوطانهم بعد تجريدهم من السلاح واستثناء عشرة فقط من هذه الشروط فلما قبل الوفد بذلك قال املكار أنتم الثلاثة من ضمن العشرة وقبض عليهم وقتلهم صلباً

وعند ماوصل خبر القاء القبض على أعضاء الوفد الثلاثة الى مسامع العصاة المحصورين في المضيق بدون أن يعلموا بتفصيلات الاتفاق ظنوا ان املكار غدر بمندوبيهم فاستعدوا فوراً للقتال وهاجموا القرطاجيين مهاجمة يائس لا أمل له فى النجاة وظلوا يحاربون حتي قتلوا عن آخرهم ويقال ان عددهم كان يبلغ أربعين الفا

وبعد ابادة هذا الجيش العظيم جمع املكار كل قواه ضد الجيش الثاني الذى كان تحت قيادة ماتوس رئيس الثورة الثاني وانتصر عليهم وقتل منهم عدداً عظيماً وأخذ زعيمهم أسيراً وارسله الي قرطاجة حيث قتل بعد ان شهروه فى الشوارع وأهانته العامة وجعلته اضحوكة وبذلك انتهت هذه الحرب الداخلية بعد ان استمرت زيادة عن سنتين كانت فيها قرطاجة في احرج المراكز واشد المضايق حتى رثى لها الاعداء وساعدها هيبرون صاحب سيراكوزه بالمال والرجال وعرضت عليها رومة المساعدة والمعاونة واباحت ارسال الغلال اليها

لكن لايظن القارئ ان هذه المساعدة كانت حباً في بقاء سودد قرطاجة وعظمتها بل خوفاً من ان يسود فيها العنصر الحربي لو انتصر العصاة وتزيد قوة ومنعة فيصعب عليها تنفيذ ما كانت

تضمره لها من المقاصد العدائية وانتهت هذه الحرب الداخلية سنة ٢٣٨ ق — م

وبعد انتصار املكار على العصاة بهذه الكيفية زاد نفوذ عائلة برقة زيادة عظمى حتى صارت صاحبة الكلمة النافذة والقول النير مردود في مجلس السناتو وجميع فروع الحكومة فخشى السناتو سوء عاقبة هذا التداخل الذى ربما يؤدى الى اسقاط الحكومة الجمهورية واغتصاب هذا القائد للسلطة

وقرر بارسال املكار وجيوشه لفتح بلاد اسپانيا لتكون عوضاً عن جزائر صقلية وسردينيا وغيرها التي احتلها الرومانيون ولابعاد املكار عن قرطاجة فسافر الي اسپانيا وأخضع فى طريقه سواحل بلاد الجزائر ومراكش ومكث باسپانيا مدة تسع سنوات قضاها في محاربة الامم المختلفة النازلة بها والزامها بالاعتراف بسيادة قرطاجة عليها وقتل فى احدي الوقائع الحربية سنة ٢٢٩ وينسب اليه تأسيس مدينة برشلونة التى تسمى باللاتينية (برسينه) تخليداً لاسم عائلة برقة

وبواسطة مساعى عائلته في السناتو تعين بدله (ازدروبال) زوج ابنته لتبقى هذه الوظيفة الخطيرة فى عائلتهم فسافر الى اسپانيا واستمر في محاربة سكانها واخضاعهم الى أن وصل فى سيره الى نهر (إبر) في سنة ٢٢٧ فتوجس الرومانيون خيفة من تقدمه السريع وابرموا معه معاهدة تلزمه بعدم تعدي هذا النهر فأخذ في تنظيم

مافتحه من البلاد وأسس مدينة قرطاجنة فى موقع تجارى مهم جداً لقربها من ساحل افريقية الشمالى ومن المعادن التي كان يستخرج الفينيقيون الفضة منها

وأصلح ميناها وأقام لها الارصفة والمخازن التجارية وبني لنفسه سراية عظيمة أفخر من سرايات ملوك هذا الوقت وصار يعتبر نفسه كأنه ملك مستقل باقليم اسپانيا واستمر على هذا الحال الى أن قتله في سنة ٢٢١ ق — م رقيق غالى الاصل أخذ بثار سيده الذى كان قتله ارذروبال غدراً وخيانة

فانتخب الجيش لقيادته انيبال بن املكار بدون انتظار أوامر السناتو من قرطاجة ولما بلغ الحكومة خبر انتخابه بهذه الصفة الغير قانونية لم يسعه الا التصديق عليه خوفاً من عصيان الجيش واستقلال انيبال باسپانيا التي اصبحت ادارتها بهذه الكيفية وراثية فى عائلة برقه

﴿ الحرب البونيقية الثانية ﴾

علم القراء مما تقدم ان أملاك قرطاجة كانت ممتدة على سواحل البحر الابيض المتوسط من اقليم طرابلس الغرب مما يلى حدود مصر من جهة الغرب الي مصب نهر ابير باسپانيا أى على مسافة تسعمائة فرسخ تقريباً لكن كانت سلطتها فعليه على السواحل فقط غير ممتدة الى داخلية هذه الاقاليم المتسعة التى تسكنها عدة قبائل متبربرة فكان يسهل على أعدائها انزال جيوشهم الى أي نقطة أرادوا ان كانوا آتين من الخارج أو على احتلال السواحل ان كانوا من القبائل الداخلية اذ ان قرطاجة كانت لاتهتم مطلقاً باخضاع البلاد التي تفتحها اخضاعاً حقيقياً بل تكتفي بالزامهم بمشتري بضائعها والاتجار معها فقط هذا من جهة حكومة قرطاجة ومستعمراتها

أما الحكومة الرومانية فكانت على الضد من ذلك بالكلية في غاية الانتظام متقاربة الاجزاء تربطها السكك الحربية وتتخللها المستعمرات وغالب سكانها تجنسوا بالجنسية الرومانية بحيث صاروا أعضاء عاملين فى الحكومة كسكان رومة نفسها لا رعايا مستعبدين الا اليسير منهم هذا فضلاً عن عدم التباين الشديد فى العوائد واللغات اذ ان سكان ايطاليا أجمعها كانوا من أصل واحد تقريباً وتغلبت عليهم عوائد الرومانيين فصار الكل جسما واحداً ومدينة رومة بمثابة القلب

لتوسط مركزها

وباحتلالها الجزائر القريبة منها صارت آمنة من مهاجمة الاعداء بحراً اذ كانت تلك الجزر كنقط امامية تمنع كل عدوّ مفاجئ وباحتلالها شواطئ البحر الادرياتيكي الشرقية اتقت شر الاليريين وأخضعتهم وصارت قريبة من بلاد الاغريق

كل هذه الاسباب والدواعي كانت تميز الحكومة الرومانية عن القرطاجية وتضمن لها الفوز عليها بكل تأكيد

تلك كانت حالة هاتين الدولتين المتناظرتين المتنازعتين للسيادة على البحر الابيض المتوسط والبلاد الواقعة على شواطئه في سنة ٢١٩ ولذلك كانت قرطاجة تخشي محاربتها وتتوقى الاسباب التي توجب الشحناء والنفرة والجفاء بين الحكومتين لعدم وثوقها من الفوز والانتصار

أما انيبال قائد جيوش اسپانيا فلم يكن من هذا الرأى بل كان يعتقد الفوز والنجاح على الرومانيين ويطمع في محاربتهم لفتح بلاد غاليا الجنوبية وايطاليا نفسها ان امكنه ويجعل نفسه ملكا مستقلاً عليها فصرف جل اهتمامه لاخضاع القبائل الاسپانية المستوطنة فى الجبال الوسطى واحتل مدينة طليطله ولما تأكد من خضوع سكان اسپانيا وأمن نزوعهم الى الثورة لو ترك بلادهم لمحاربة الرومانيين جهز جيشاً جراراً من نحو مائة وخمسين الف مقاتل وحاصر مدينة (ساجونت) الواقعة على شاطئ نهر الابرو التى كانت اشترطت

فى المعاهدة التى بينها وبين ازدروبال في سنة ٢٢٧ ق — م حفظ استقلالها وعدم مس حريتها قاصداً بنكث هذا العهد والخروج عن نصوصه الزام رومة بمحاربته ثم شدد عليها انيبال الحصار ودخلها عنوة بعد ثمانية أشهر فوجدها مشتعلة بالنيران اذ أن أهلها فضلوا حرقها وتدميرها عن تسليمها الى الاعداء[1]

ولما علمت رومة بهذا التعدى المخالف للعهود والمواثيق أرسلت وفداً الى أنيبال تذكره بها وتحذره سوء العاقبة واخر الى قرطاجة لاستصدار الاوامر الى هذا القائد بالعدول عن محاصرة (ساجونت) فعاد الوفدان بلا فائدة

فأرسلت بعض أعضاء السناتو ثانياً الى انيبال وكان من ضمنهم شهم يدعى (فابيوس) فلم يصغ الى طلباتهم واصر على عناده وتمادى في غروره فقال له فابيوس انى أعرض السلم والحرب عليك فاختر أيهما يحلو لديك فأجابه انيبال ان الاثنين عندي سواء فاختر أنت

(١) هكذا فعل الروسيون سنة ١٨١٢ بعد المسيح فى مدينة موسكو التي تلى عاصمتهم سان بطرسبورج في الاهمية حينما أغار عليها الفرنساويون تحت قيادة نابليون الاول عندما رأوا ان لامناص من دخول الفرنساويين اليها واحتلالها فحرقوها حتى لايمكن للجيش الفرنساوى أن يقضي فيها فصل الشتاء القارص في تلك البلاد كما كانت عزيمة نابليون فيضطر الى التقهقرى والعود الى الغرب للتحصن فى نقطة أخرى ويمكن للروسيين حال تقهقره الانقضاض عليه والفتك بجيوشه وقد نجح تدبيرهم وقتل أو مات من البرد نحو ثلثي الجيش الفرنساوي وكانت هذه الهزيمة ابتداء افول نجم نابليون الاول

ماتريد فقال فابيوس الحرب الحرب وعاد هو ومن معه الي بلاده

وكان ذلك هو سبب الحرب البونيقية الثانيه التى استمرت ثمان عشرة سنة وكانت عاقبتها وخيمة جداً على قرطاجة فقد فقدت فيها اهم جيوشها البرية والبحرية وجزيرة اسپانيا حيث فتحتها رومة وادخلتها ضمن املاكها وصارت قرطاجة عرضة لهجمات الرومانيين لا سفن ولا جنود تمنع وصولهم اليها او شن غاراتهم عليها

وبمجرد اشهار الحرب بالكيفية السابقة ساق انيبال جيوشه الى جبال پيرينيه الفاصلة بين اسپانيا وفرنسا لانه اتخذ فى هذه الحرب للوصول الى بلاد الرومان طريقا لم يسلكه احد قبله وهو طريق البر من جنوب فرنسا الى ايطاليا وذلك لتعسر الوصول اليها بحراً بسبب احتلال الرومانيين اكبر جزائر البحر الابيض المتوسط وأغلب جزائره الصغيرة

ووصل انيبال الى جبال الالب الفاصلة بين فرنسا وايطاليا بعد ان حارب أغلب القبائل والامم الواقعة على طريقه ولم يلتفت الى الجنود التى أرسلها الرومانيون الى مرسيليا لقطع خط الرجعة عليه ولم يحاربهم بل جد فى اجتياز جبال الالب الوعرة المسالك الضيقة المفاوز لاتعوقه وعورتها ولا توقفه صعوبتها بل كان يفتح الطرق ويوسعها لمرور جنوده غير مبال بما يتكبده من المتاعب ويهلك فى هذه الاعمال الشاقة من الرجال والدواب ناظرا الى الامام فقط شأن أولي العزم من الرجال وأولى الحول والقوة من القواد حتى

اجتاز هذا الطريق التى لم يسلكها جيش قبله ولم يصل ايطاليا الا بنصف جيشه وهلك الباقي في الطريق البعض من محاربة القبائل التي اعترضته والباقى في مضايق الالب

وبمجرد وصوله شمال ايطاليا عاقب قبيلة (تورين) على عدم مساعدتها له ودخل مدينتهم عنوة وجعل عاليها سافلها [١]

ولقد أدهشت الرومانيين هذه السرعة العجيبة حتى عدلوا عن مشروعهم الاول وهو ارسال الجيوش الى نفس قرطاجة حتى يضطر انيبال الى العودة اليها لحمايتها واستدعى السناتو القنصل سمپرونيوس (Sompronius) بعد ان انتصر على مراكب القرطاجيين واحتل جزيرة مالطه واسترجع القائد سيپيون من غاليا (فرنسا) وجمع جيشا باعالى ايطاليا لصد انيبال وايقانه في سيره نحو رومة

فانتصر انيبال على سيپيوس بالقرب من نهر (تسينو) وجرح القائد الروماني فتقهقر بجيوشه الى ماوراء نهر (پو) وانضم بجيوشه الى القنصل سمپرونيوس وتحصن فى موقع منيع على نهر (تريبيا) فاحتال عليهم انيبال حتي أخرجهم من هذا الموقع الحصين وانتصر عليهم نصراً

---

(١) هي مدينة تورينو الجميلة واقعة فى شمال ايطاليا على نهر البو وبها مباني شاهقة وآثار فائقة يبلغ عدد سكانها اربعمائة الف نسمه وهى معدودة من اشهر مدن العالم وبها كنيسة قديمة بنيت فى اوائل القرن الخامس للميلاد وتفتخر على باقى بلاد ايطاليا بانها وطن (كافور) السياسى الشهير الذي كانت له اليد الطولى في توحيد ايطاليا فى القرن التاسع عشر

مبيناً بعد قتال شديد قتل فيه على ماجاء في كتب الثقاة ثلاثون الفاً من الرومانيين ولم ينج سمپرونيوس بمن بقي معه الا بعد ان زهقت النفوس وتناثرت الرؤوس ودخل ببقايا جيشه الى مدينة (پليزانس) حيث حاصره القرطاجيون (٢١٨ ق ٠ م)

وبعد هذا النصر العظيم قصد انيبال ان يجتاز جبال (اپينو) الحائلة بينه وبين رومة لكنه لم يتمكن من اتمام مشروعه لدخول فصل الشتاء وتراكم الثلوج في مضايق هذه الجبال

وبسبب انتصاراته السريعة انضم اليه كثير من الغالبين القاطنين في شمال ايطاليا طمعاً في الغنيمة واتوا الى معسكره افواجا حتي عوضوا أغلب من قتل من رجاله في هذه الحروب المتواصلة ضد الطبيعة تارة وضد الرومانيين تارة اخرى

وبمجرد ما ابتلج فجر الربيع وذابت الثلوج وسهل المرور نوعا شرع انيبال فى الزحف على رومه وسار من اقصر الطرق ولو انها اصعبها اجتيازا اذ كان يلزمه المسير ثلاثة أيام فى وسط مستنقعات وادغال لكن لم تقعد هذه الصعوبات همته بل اجتازها كما اجتاز جبال الالب وتغلب عليها كما تغلب على جميع المواقع التي اعترضته من قبل

كل ذلك والرومانيون لم يبدوا اقل اهتمام يمنعه من التقدم بل تربصوا له بجيوشهم بالقرب من بحيرة (تراسيمين) المسماة الآن بحيرة (پيروزه) تحت قيادة قائدهم الشهير (فلامينيوس)

ولقد استعمل معه انيبال ما استعمله مع القواد السابقين من الحيل ومتي اخرجه من محل استحكامه وانتصر عليه بقوة فرسانه المشهورين فى موقعة هائلة لم تستمر سوى ثلاث ساعات قتل فى اثنائها القائد الرومانى وخمسة عشر الفا من رجاله واخذ قدرهم اسراء وفر الباقون يبكون اخوانهم ويندبون خط بلادهم (٢١٧ قبل المسيح)

وبعد هذا الانتصار العظيم لم يجسر انيبال على الزحف على مدينة رومة التي كان لا يبعد عنها الا بمقدار مائة كيلو متراً لعلمه باستعداد أهلها للدفاع عنها والتهالك فى الزود عن حوضها حتى المهات ولما أصاب جيوشه من النصب والتعب في هذا السير السريع والمحاربات المستمرة

فلهذه الدواعى والاسباب رأى من الحكمة والصواب ان يتربص مدة شتاء تلك السنة ريثما تستريح جيوشه مما ألم بها من المتاعب وتتقوى خيوله مما لحقها من المشاق ولكي يستميل اليه بعض القبائل التي ضمتها رومة اليها حديثاً ولم تقو علائقها وروابطها معها خصوصاً سكان ايطاليا الجنوبية المسماة (اغريق الكبرى) كما استمال سكان شمال ايطاليا الغالبين

أما الرومانيون فلم ترعهم هذه المصائب المتوالية ولم تؤثر على شجاعتهم ووطنيتهم هذه الكوارث المتعاقبة بل جمعوا الجيوش والكتائب وقرر السناتو ان الوطن فى خطر وعين القائد (فابيوس) رئيس طائفة الاشراف حاكماً عاماً مطلقاً (دكتاتور) لمدة ستة شهور وعين (مينوسيوس) قائداً للفرسان ارضاء للشعب حتى

لا يظن بالسناتو سوءا

وكانت طريقة فابيوس فى الحرب التسويف وعدم التورط فى الحرب مالم يكن متحققاً من الظفر والنصر على الاعداء

ولقد سعى انيبال كثيراً في اغرائه على قبول المحاربة في السهول الواسعة التي يسهل فيها على فرسان قرطاجة الهجوم على الرومانيين فلم يفلح ولم يتبعه الى السهول مطلقاً بل اعتصم بالجبال متربصاً الفرص فينتهزها بدون تراخ او توان

وبالغ فابيوس في الحذر والتوقى من مقابلة جيوش انيبال حتي رماه أعدائه بملائمة العدو والاتفاق معه على خيانة الوطن وأهله وساعد قائد الفرسان (مينوسيوس) على ازاعة هذه المفتريات ليعين حاكماً عاماً بعد انتهاء مدة فابيوس

ولقد تحصل على بعض مطامعه اذ جعل قائداً مشاركاً في الرئاسة لفابيوس بأن تكون القيادة العامة لكل منهما يوماً بالتعاقب فحارب مينوسيوس القرطاجيين وهزم وكاد انيبال يجهز على الجيش الروماني لولا مساعدة فابيوس له وارشاده بنصائحه

ولما انتهت مدة الحاكم العام عادت الاحكام الدستورية وانتخب قنصلان لهذه السنة فانتخب حزب الاشراف (پول اميل) لكونه على رأي فابيوس في زيادة التحذر وعدم المخاطرة بالجيوش وانتخب الحزب الاهلى (ترنتيوس ڤارون) قنصلا ثانياً فكان الاول يميل الى التسويف ويرغب الثانى في التعجيل بالحرب

وبسبب هذا الخلف بين الرؤساء تطرق الخلل الى الجنود وصار كل منهما ينقض ماقرره زميله في يومه حيث كانت القيادة بينهما مناوبة

وفى يوم ٢ اغسطس سنة ٢١٦ قبل المسيح كانت القيادة لفارون فاقترب من جيش انيبال حتي التحم الجيشان وحصلت بينهما موقعة هائلة بالقرب من مدينة (كان) [١] كان الفوز فيها للقرطاجيين كما كان لهم فى الواقعتين السابقتين بفضل فرسان الافريقيين الذين كان يبلغ عددهم عشرة آلاف اي خمس الجيش باجمعه البالغ خمسين الفا

اما جيش الرومانيين فكان اكثر من جيش العدو عددا بما يوازى الضعف لكن لم يكن بينهما اكثر من ستة آلاف فارس

ومع ان انتصار القرطاجيين كان فى جميع مواقعهم السالفة مسببا عن كثرة عدد الفرسان لم يلتفت قواد الرومان لهذا الامر الخطير ولم يستفيدوا مما الم بهم بسبب قلة فرسانهم ولم يزيدوا عددهم بالنسبة الموجودة في جيش انيبال اذ لو روعيت هذه النسبه لكان يلزم ان يكون فى جيش الرومان عشرون الف فارس لاستة آلاف

---

(١) مدينة باقليم ايطاليا وهى غير مدينة كان الشهيرة بجودة اقليمها واعتدال هوائها الواقعة على البحر المتوسط بجنوب فرنسا ويقصدها السواح في فصل الشتاء

وقد قدر المؤرخون قتلى الرومانيين بين خمسين وسبعين الفا والاسري بعشرة آلاف

وقال الخبيرون بفنون الحرب والقتال انه كان من السهل على انيبال أن يزحف على مدينة رومة فيحتلها بدون كثير عناء بسبب مالحق سكانها من الاضطراب والخوف عقب وصول خبر هذا المصاب العظيم اليهم لكن منعه عن ذلك اشتغال جنوده بجمع الاسلاب والغنائم وبيعها والاتجار بالاسرى والارقاء وصرف غالب أوقاتهم فى مغازلة الحسان ومعاقرة بنت الحان فرحاً بما نالهم من النصر المبين والفوز العظيم ومن جهة أخري كان جزء ليس بقليل من جيوشه من غير القرطاجيين مؤلفاً من خليط جميع القبائل التي مالت اليه لا طلباً للمجد والفخار بل سعياً وراء الكسب والغنى

ولذلك خشى التقدم الى الامام لعدم تأكده من اطاعة الاجراء من جنوده لاوامره ولتحققه من ان جميع سكان مدينة رومة يكونون يداً واحدة في الدفاع عنها لافرق فى ذلك بين الرجال والنساء والاحرار والارقاء وانهم لايدعونه يطأ ارض المدينة مادام فى عروقهم قطرة من الدم

فلهذه الاسباب فضل التربص فى جنوبى ايطاليا والسعي فى استمالة سكانها اليه ليكونوا له أعواناً على الرومانيين خصوصاً وقد نقص جيشه نقصا بليغا حتى صارت الاغلبية فيه للاجراء وصار من المستحيل وصول مدد اليه من قرطاجة بسبب محاصرة سفن الرومان لجميع

سواحل ايطاليا ومنع أى اتصال بينه وبين بلاده

فكان من المحتم عليه ادخال بعض القبائل الجنوبية تحت طاعته طوعاً أو كرهاً وتجنيد الاشداء من رجالها ضمن جنوده وعدم التعويل على وصول المدد اليه لسد النقص الذي حصل فى جيوشه بسبب الامراض والحروب

ويظهر للمطالع من هذه التفصيلات ان مركزه كان من أحرج المراكز وموقفه من أصعب المواقف بتوغله في ايطاليا بدون أن يحفظ لنفسه خط اتصال بينه وبين قرطاجة براً أو بحراً ولذلك كان الرومانيون معتقدين بقرب الانتصار عليه واهلاكه مع من بقى معه من الجنود لو اتبعوا الصبر والحكمة ولم يلقوا بأيديهم الى التهلكة كما فعل القواد السابقون في المواقع السالفة

فانتخبوا فابيوس القائدالذي اشتهر فى أول هذه الحرب بالتؤدة وعدم التهور فنصلا لسنة ٢١٧ قبل المسيح وأعادوا انتخابه فى السنة التالية . وفى خلال هاتين السنتين أتى من ضروب الحكمة وفنون القتال ماجعل انيبال فى خطر عظيم وأوقعه فى حيص بيص اذ أحاطت به الفيالق الرومانية من جميع الجهات احاطة السوار بالمعصم واحتلت أغلب البلاد التى فتحها وضايقت عليه الحصار فى مدينة (كابوا) وقطعت مواصلاته مع الخارج كلية وكادت تجهز عليه قطعياً لو لا ما استعمله من السياسة فى اهاجة مدينة (سيراكوزه) على الرومانيين بدسائسه واستمالته بفيليب ملك مقدونية ووالد

اسكندر الاكبر مما سنذكره بعد قليل

ولقد أتى الرومانيون فى هذه الظروف الحرجة مايجب على كل أمة اتخاذه نموذجاً تنسج على منواله وقدوة حسنة تقتدى بها فى محبة الوطن العزيز وبذل الروح لا المال لانقاذه من الخطر أو استخلاصه من مخالب الاجانب فكل أمة سهل عليها افداء وطنها بأرواحها حفظت استقلالها وعاشت سعيدة سعادة حقيقه . وكل أمة استسهلت تحمل سيطرة الاجنبي على ادارتها واستخفت ثقيل وطئته على هامتها فقدت استقلالها لامحالة وسارت الى طريق الموت الادبي والمادى حيث لاينفعها ماضنت به من المال ولا ما احتفظت عليه من الارواح

ولما كانت الامة الرومانية قداشربت هذه الاحساسات الوطنية والعواطف الملية سهل عليها صرف الاموال وبذل المهج والارواح فى سبيل حماية بلادها وطرد الاجنبي من المواقع التى احتلها فقبلت مضاعفة الضرائب بأنواعها وقدمت كل مالدى نسائها من الحلى والمصاغ تبرعاً لينفق فى تعبئة الجيوش وتسليحها . وأصدر السناتو قراراً بأنه لايجوز لاى سيدة من السيدات احراز مصاغ من الذهب يزيد وزنه على نصف أوقية . وقدم الاغنياء كل ماعندهم من الارقاء ليدمجوا ضمن الجند وتبرعوا بثمنهم ومنحوا الحرية لمن يعود من الحرب منهم سالماً . ومنهم من تبرع بمؤونة عدد معين من الجند مدة سنة الى غير ذلك من أنواع المساعدات والتبرعات التى أملتها وطنيتهم

على قلوبهم حتى امكن الحكومة جمع نحو مائتين وخمسين الف جندى وتشييد مايلزم من السفن لمنع اى اتصال بين انيبال وقرطاجة ونقل الجيوش الرومانية الى اسبانيا لمساعدة القائد (سيبيون) على محاربة القرطاجيين هناك . ولو لا وطنية الاهالى وتفضيلهم الموت على مذلة تسلط الاجنبي لما امكن الحكومة اتيان أى عمل من ذلك هذا

ولم تفد أنيبال مساعيه في اثارة حاكم سيراكوزه بجزيرة صقلية المدعو هيبرون فانه لم يلب دعوته الى محاربة الرومانيين بل حافظ على ولائهم فى أيام شدتهم محافظته عليه فى أيام سعادتهم . وكذلك لم ينجح القرطاجيون فى مهاجمتهم جزيرة سردينيا ليحولوا أنظار الرومانيين عن انيبال نوعاً ويضطرونهم لارسال بعض جيوشهم للمحافظة عليها . وأخيراً لم تفده حيلته الثالثة وهى الاستنجاد بفيليب المقدونى فان الرومانيين هاجموه حين استعداده لمهاجمتهم ببلاد اليريا فزموه وأضطروه الى العودة لبلاده مخذولا . وبذلك لم يبق لانيبال خلاص من الموقف الحرج الذى وجد فيه بسبب طيشه وثقته الزائدة فى قوة جيوشه وتفننه فى ضروب الحرب الا الاتكال على من بقي معه من الجيوش بدون انتظار وصول مدد اليه من قرطاجة بسبب محاصرة الرومانيين لجميع الثغور كما قدمنا

ولقد تمكن انيبال من الخروج من مدينة (كابوا) قبل اتمام الحصار عليها . وأخذ يناوش الرومانيين كى يتبعوه فى الاماكن السهلة فينقض عليهم بفرسانه المشهورة لكن أعياه صبر

الرومانيين الذين التزموا خطة التسويف فى الحرب على مذهب رئيسهم فابيوس

هذا ولما مات هيرون حاكم سيراكوزة وقتل ولده بعده امكن انيبال أن يهيج الاهالي ويبث فيهم روح الثورة والعصيان فثاروا على حكامهم المسالمين لرومة وأعلنوا الحكومة الجمهورية واتحدوا مع قرطاجة ضد الرومانيين فحاربهم القائد الروماني (مارسللوس) وانتصر عليهم بعد العناء والتعب. وافتتح مدينة سيراكوزة سنة ٢١٢ وقتل أثناء الهجوم عليها الرياضى الشهير ارخميدس (*Archimède*) وطرد القرطاجيين الذين أتوا لمساعدتهم على الرومانيين. ولم تعد هذه الفتنة بأقل فائدة على انيبال

وفى سنة ٢٠٩ أعيد انتخاب فابيوس لقيادة الجيش فاستخلص مدينة ترنته من القرطاجيين وكانت هذه الحادثة خاتمة أعماله الحربية اذ لم ينتخب بعد ذلك الى أن توفى سنة ٢٠٥ قبل المسيح

ولقد امتاز (كرنوليوس سيبيون) وأخوه فى محاربة القرطاجيين في اسبانيا والانتصار على ازدروبال أخ انيبال فى عدة وقائع شهيرة وكان النصر حليفهم دائما الى سنة ٢١٢ حيث قتلا فى احدى هذه الحروب العديدة. وكان لاحدهما كورنيليوس ولديدعى (پوبليوس) اشتهر فيما بعد باسم سيبيون الافريقي كان خير ولد لخير والد فانه حفظ اسم أبيه وعمه بل فاق عليهم فى الشهرة وبعد الصيت اذ كان انتهاء هذه الحرب بحسن تدبيره وبعد نظره

كما سترى

وفي سنة ٢٠٨ انتخب كل من القائد مرسللوس وكرسيبوس قنصلين لهذه السنة فارتئيا مهاجمة أنيبال لوضع حد لهذه الحرب التى طالت مدتها وزادت مضراتها ولم يتبعوا خطة سلفهم فابيوس . فعادوا بالخيبة والفشل وقتل مرسللوس مع كثير من ضباط الجيش وجنوده فلم يعد انتخاب زميله لسنة ٢٠٧ بل وقع الانتخاب على القائدين نيرون وليڤيوس

وفى تلك السنة انتصر (ازدروبال) على سيپيون الافريقى فى بلاد اسبانيا واجتاز جبال البرينيه وبلاد غاليا الجنوبية الى أن وصل شمال ايطاليا لمد يد المساعدة والمعاونة لاخيه أنيبال ويحصرا مدينة رومة بين جيشهما لكن أتاح الله لهذه الامة الرومانية التى استمرت تحارب عن استقلالها وتناضل عن حياتها عشرات من السنين القائد نيرون الذى كان يحارب أنيبال في الجنوب بينما كان زميله واقفاً فى وجه ازدروبال يمنعه عن اللحاق بأخيه . فقدد برهذا القائد حيلة أجهز بها على ازدروبال وذلك انه سار بكل سرعة مع سبعة آلاف من نخبة رجاله بعد ان اتخذ مايلزم من الاحتياطات لعدم استشعار أنيبال بغيابه وجدّ فى السير ستة أيام حتى لحق بزميله ليڤيوس وأعلن العدو باجتماع الرئيسين فظن ازدروبال ان أخاه قد خذل ومات اذ كان يصعب عليه ان يعتقد بمغادرة نيرون لجنوب ايطاليا مع وجود أخيه بها فقر ازدروبال بجيوشه الى الشمال لتوهمه ان

جميع جيوش الرومانيين اتحدت لمحاربته وتحققه من عدم امكانه مقاومتها فتبعه القنصلان بما معهما من الجيوش وهزماه شر هزيمة بالقرب من نهر ميتوروس وفرقوا جنوده أيدى سبا ووجدا جثته ضمن القتلى وأرسلا رأسه لانيبال ليعلموه مما حل بأخيه . ولقدمحى الرومانيون فى هذه الموقعة مالحق بهم من الفشل والتصق بهم من العار فى واقعة تراسيمين وكان

وبعد ذلك لم يبق لانيبال أقل أمل فى وصول أدنى مساعدة اليه من جهة قرطاجة ويئس من النجاح فى مشروعه اذ تضعضع حاله وهلكت جيوشه وتفرق من حوله محالفوه ومحازبوه من أهالى البلاد لما رأوا ماحل به من الانكسار وأيقنوا ان الفوز سيكون للرومانيين لامحالة لكنه لم يظهر يأسه بل تظاهر بالثبات والصبر شأن كل عاقل حكيم

ولنأتى هنا باختصار على ذكر ماحصل باسبانيا من الوقائع بين الرومانيين والقرطاجيين بعد موت كورنوليوس سيپيون وأخيه وظهور ولده پوبليوس الذى تلقب بالافريقي فنقول

ان پوبليوس انتصر مرتين على ازدروبال أخ أنيبال ثم غافله ازدروبال المذكور واجتاز جبال البرينه وبلاد غاليا (فرنسا) ووصل الى شمال ايطاليا لمساعدة أخيه فهزم وقتل وأرسلت رأسه الى أخيه كما مر . وفى أثناء ذلك فتح پوبليوس سيپيون مدينة قرطاجة الجديدة المعروفة الآن باسم قرطاجنة التى كان أسسها أنيبال بساحل

اسبانيا . ووجد سيپيون ما كان لدى القرطاجيين من الرهائن التى أخذوها من أهالى اسبانيا ليأمنوا غدرهم وانضمامهم للرومانيين فأحسن سيپيون معاملتهم وردهم الي اهلهم مزوّدين بالهدايا الثمينة والتحف النفيسة وعامل الاهالى بالرفق واللين فمالوا اليه بقلوبهم وساعدوه بأموالهم ورجالهم حتى افتتح جميع ما كان لقرطاجة من بلاد اسبانيا ولم يبق لهم الا مدينة قادس

ثم حول أنظاره الى افريقيه الشماليـة وبالاخص الى بلاد نوميديا (هي بلاد الجزائر ومراكش الآن) التى كانت مجزئة بين دولتين متحدتين مع قرطاجة

وكان ملك أحدهما يسمى مسنيسا والآخر سيفاكس وسعى فى سلخهم عن قرطاجة وضمهم اليه ليكونا له عوناً على القرطاجيين وسافر فعلاً الى (سرتا) عاصمة مسنيسا المسماة الآن مدينة قسنطينة بجزائر الغرب وأبرم تحالفاً مع هذا الملك وتحالف كذلك مع سيفاكس لكن لم يلبث سيفاكس ان انفصل بمساعي القائد القرطاجي ازدروبال بن جسكون الذي زوجه ابنته وساعده على محاربة مسنيسا وطرده من مملكة آبائه وأجداده

لكن لم تقعد سيپيون كل هذه العوائق عن تنفيذ ماصمم عليه وعرضه على أمته وهو ان يقصد نفس بلاد قرطاجة بجيش عظيم فيضطر أنيبال لمبارحة بلاد ايطاليا للدفاع عن وطنه الاصلى وهو مشروع غاية في الاهمية والاصابة الا أنه صادف معارضات شديدة

في رومة وبالاخص من القائد الكبير فابيوس الذى كان يميل دائماً الى التسويف وعدم الاسراع وكان رأيه تضييق المذاهب والمسالك على أنيبال ومحاصرته فى الجهة النازل بها حتى يضطر للتسليم

وقد انصاع سناتو رومة لهذا الرأى ولم يوافق سيپيون الافريقي على رأيه فسافر سيپيون الى سيرا كوزة بجزيرة صقليه وأرسل عدة خطابات الى الولايات الرومانية والشعوب التابعة لرومة يفصل لهم مشروعه ويوضح أفضليته على رأى فابيوس الذى لايكون من ورائه الا اطالة مدة الحرب واضمحلال الامة وفقرها باشتغالها عن الزراعة والتجارة وصرفها كل قواها في تعبئة الجيوش وتجهيزها وتعطيل مادونها من الاشغال فصادف ندائه أذانا واعيه وقلوبا متقدة وطنية وغيرة على استخلاص الوطن من احتلال الاجنبى فأمدته الامم التابعة لرومة بالمال والرجال والسفن وتطوع كثير من شبان الرومانيين من جميع الطبقات لافرق بين فقير وحقير في خدمة الوطن والدفاع عن حرمته حتى جمع سيپيون في مدة وجيزة ثلاثين الف جندى وسافر بهم قاصداً افريقية تحملهم اربعماية سفينة تجارية تحفرهم خمسون سفينة حربية وأخذ من المؤونة مايكفي جميع جيشه مدة خمسة وأربعين يوماً وأقلع فى غضون سنة ٢٠٤ ق٠م قاصداً قرطاجة وكان يوم سفره من ثغر ليليبيا [1] يوماً مشهوداً حضره

(١) فرضه قديمة فى جنوب جزيرة صقلية والمسافة بينها وبين ساحل افريقيا أقل من جميع الثغور الاخرى وكان أيام القرطاجيين والرومانيين ذات =

اليه الاهالي من أقاصى الجزيرة ومما جعل لهذه الارسالية أهمية عظمى ان الحكومة لم تشترك فيها مطلقاً بل كانت مضادة لها اتباعاً لرأى القائد المسوف فابيوس

ولم تعترض سفن قرطاجة سيپيون وسفنه أثناء اجتيازهم البحر بين صقليه وتونس بل سار بأمان الى أن القت السفن مراسيها بمحل يعرف الآن باسم (*Beau promontoir*) وأنزل عساكره الى البر فانضم اليه في الحال مسنيسا ملك نوميديه السابق ذكر تعدى سيفاكس عليه واغتصابه الملك منه بمساعدة ازدروبال القرطاجي وقضى سيپيون مابقي من سنة ٢٠٤ بدون ان يأتي عملا يذكر سوى تحصين معسكره واتخاذه الاحتياط اللازم لصد كل عدو مفاجئ

وفي السنة التالية جمع له القرطاجيون جيشاً يزيد عن خمسين الف مقاتل تحت قيادة ازدروبال وبمساعدة سيفاكس فتظاهر سيپيون بالميل الى الصلح حقناً للدماء البريئة وأرسل بعض ضباطه الى معسكر الاعداء بحجة المخابرة في الصلح وشروطه وكانت مأموريتهم الحقيقية زيارة معسكر الاعداء واستكشاف أحوالهم

ولما علم سيپيون بهذه الطريقة ان المعسكر مركب من اكواخ صغيرة من القش والبوص عمد الي حرقه بالنار ليلا فحرق ودمرت

أهمية عظمى ولما دخلها العرب أيام الاسلام سميت (مرسي الله) ثم حرف اسمها فصار الآن (مرسالا) وهي مشهورة بجودة نبيذها ويبلغ عدد سكانها أربعين الف نسمة

ميرة الاعداء وما معهم من المؤن وهلك كثير من جنودهم وتفرق الباقون الى جميع الجهات وبذلك انتصر عليهم نصراً مبيناً بدون ان يعرض حياة نفر من رجاله الى الموت وانتصر عليهم مرة ثانية في موقعة منتظمة

ثم أرسل مسنيسا مع أحد القواد الرومانيين لاقتفاء أثر سيفاكس والقبض عليه حياً أو ميتاً فطاردوه في الجبال والسهول وانضم اليهم كثير من أهالي نوميديه الذين أصلهم رعايا مسنيسا وتفرقت الجنود عن سيفاكس لما علموا بمجئ ملكهم الاصلي وسيدهم الشرعي واخيراً قبض عليه وعلى زوجته ابنة ازدروبال ودخل مسنيسا مدينة سرتا (الآن قسنطينة) وجئ بسيفاكس الى سيبيون فسجنه الى انتهاء الحرب وتزوج مسنيسا زوجته التي كان يهواها من قبل لكن لم يقبل سيبيون زواجه بها وطلب منه ان يتركها او يأخذ منه ملكه فأثر الملك على حب هذه الفتاة ودس لها السم فماتت شهيدة الجشع والطمع

وفي هذه الاثناء استقدمت حكومة قرطاجة انيبال وجيوشه من ايطاليا كما استقدمت ماجون الذي كان ارسل بجيش قرطاجي الى جبال (ليجوريا) بشمال ايطاليا ليحول قوى الرومانيين اليه ويخلص بذلك انيبال من الضيق المحدق به فعادا طائعين وطهرت الاراضي الرومانية من دنس الاحتلال الاجنبي بحسن تدبير سيبيون ونقله ميدان الحرب بافريقية

وقد اتى انيبال من الفظائع عند مبارحته ايطاليا ماتقشعر منه الابدان وترتعد له الفرائص وقتل كل من لم يقبل مرافقته الى افريقية من الاهالى الذين كانوا انخرطوا فى سلك جيوشه طلباً للغنيمة فخرج من ايطاليا آسفاً على عدم نجاح مشروعه وخيبة مسعاه أمام وطنية الرومانيين وتهالكهم في الدفاع عن بلادهم عشرات من السنين

ولما عاد انيبال الى افريقيا اراد ان يصالح سيبيون على مال معين فلم يقبل لتصميمه على الحرب والانتصار حتى يمحو عن رومة وجيوشها مالحقها من العار في بعض الوقائع السابقة وينتقم لها من قرطاجة وجيوشها التي طمحت بانظارها لامتلاك البحر الابيض المتوسط

وفي شهر اكتوبر سنة ٢٠٢ ق.م جمع القرطاجيون ما امكنهم جمعه من بقايا جيوشهم واستعد سيبيون للقتال مستعيناً بفرسان نوميديا الآتين مع مسنيسا لنجدته والذين كانوا في اوائل هذه الحرب عوناً لانيبال ضد الرومانيين في وقائع تريبيا وكانه وغيرهما

وفي ١٩ من ذلك الشهر التحم الجيشان بمحل يقال له (زاما) *(Zama)* وانتصر الرومانيون على القرطاجيين نصراً لم تقم لهم بعده قائمة وفر انيبال الى مدينة (هدروميت) ومنها الى قرطاجة فدخلها مهزوماً بعد ان اقام خارجها خمسة وثلاثين سنة قضاها في الحرب والقتال

وبعد الانتصار عاد سيبيون الى تونس طارداً من طريقه كل

من قابله من بقايا الجيوش ومن تونس ارسل الى قرطاجة رسولا بالشروط التي اقترحها للصلح واخلاء أرض قرطاجة وهذه الشروط هي — ان تتخلى قرطاجة عن جميع أملاكها باسپانيا وجزائر البحر المتوسط ولاتحفظ الا بلاد قرطاجة الاصلية (اقليم تونس) — وان تسلم جميع مالديها من أسرى الرومانيين والفارين اليها من الجيوش الرومانية وجميع ماعندها من السفن بحيث لايكون لها الحق الا في عشر سفن لاغير — وان تسلم مالديها من افيال القتال — وان لايجوز لها ان تقتني غيرها فيما بعد — وان لاتحارب أحد مجاوريها الا باذن رومة — وان لاتؤجر الاغراب في جيوشها — وان تدفع غرامة حربية قدرها عشرة آلاف تالنت *(Talents)* في مدة خمسين سنة — وان تعتبر مسنيسا حليفاً لها وتعطيه غرامة حربية تقدر فيما بعد

فقبل سناتو قرطاجة هذه الشروط جميعها وسلمه خمسمائة سفينة حربية امر سيپيون بحرقها امام قرطاجة حتى يثبت لهم ان رومة غير محتاجة لسفنهم وانها غنية بنفسها

وكان رأى بعض قواد الرومان الغاء حكومة قرطاجة بالمرة ومحوها من عالم الوجود حتى تكون رومة المالكة الوحيدة لحوض البحر المتوسط الغربي لكن لم يوافق سيپيون على هذا الرأى بل فضل بقاء قرطاجة ضعيفة وبجانبها حكومة قوية محالفة لها وتحت سيطرة الحكومة الرومانية وهي حكومة (نوميديا) وعزز هذا الرأي بان الرومانيين لو أمنوا كل مزاحمة من جهة قرطاجة لركنوا

الى الخمول اذلا يكون لديهم باعث يحثهم على مداومة الحذر والاستعداد لصد كل طارئ وتكون النتيجة اماتة الاحساسات الحربية والعواطف الوطنية في الامة الرومانية ونعم الرأى رأيه فان اهتمام الامة بامر حياتها وحمايتها من الطوارئ الخارجية يجدد فيها دائماً روح الوطنية ويشدد ربط الاتحاد بين أفرادها بخلاف ما لوكانت آمنة من الاعداء داخلا وخارجا فانها تميل الى الترف وحب الزخرف وتشغلها الملاذ الدنيوية عن الاهتمام بالامور العمومية النافعة للبلاد وتضعف فيها العواطف الشريفة شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى بالمرة وتكون فريسة سهلة لكل طامع في امتلاكها ساع وراء ابادتها

ولهذه الملاحظات صدق مجلس سناتو رومة على هذه الشروط واحتفل بسيبيون عند عودته احتفالا لم يسبق لغيره من القوادالعظام فدخل رومة في موكب حافل سار فيه وراء عربته الملك سيفاكس السابق الذكر وهو أول ملك سار بصفة أسير فى موكب انتصارى برومة (وقال بعض المؤرخين انه مات فى السجن قبل هذا الاحتفال) وقامت له الاهالى من جميع الطبقات بمظاهرات الولاء والاخلاص وتغالت الامة في اظهار شكرها له على تخليصها من الاحتلال الاجنبي وضعضعة اركان قرطاجة حتى عينته حاكما معالقاً (دكتاتور) طول حياته خلافاً لما تقضى به النظامات والقوانين

هذا ويظهر للمطلع على التاريخ القديم والحديث ان بين حروب رومة لقرطاجة وحروب فرنسا لانكلترا في أوائل

القرن التاسع عشر تشابه عظيم وهو ان كلا منهما كانت تسعى للاختصاص بسيادة البحار دون الاخرى فقازت رومة على منافستها ولم تفز فرنسا على انكلترا لدواع يطول شرحها

وكذلك توجد مشابهة بين اجتياز انيبال لجبال الالب في اوائل الحرب البونيقية الثانية وبين عبور نابوليون بونابرت لها عند محاربته النمسا في آخر القرن الثامن عشر فانه اتبع طريق سان برناد الذي اتبعه انيبال فكان له منه قدوة حسنة سار عليها ونسج على منوالها وكذلك فقد أراد نابوليون مجاراة سيبيون الافريقي في طريقة محاربته لقرطاجة ونقله الحرب الى بلادها بدل ان تكون بلاد ايطاليا مرسحا للقتال فانشأ معسكراً عظيما في ثغر (بولونيا) على بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا وجمع فيه جيشاً جراراً وعدة مئات من السفن الحربية وسفن النقل لنقل الجنود الى بلاد الانكليز ومحاربتها في نفس بلادها فيضطرها لسحب عساكرها من البرتقال واسپانيا وباقي جهات قارة اوروپا والاشتغال بالدفاع عن بلادها وعدم مساعدة باقي دول اوروپا ضده لكن لم تساعده الظروف على تتميم هذا المشروع وحفظت انكلترا من اغارته التي لو تمت حسب تدبيره لاجهزت عليها ولم تقم لها بعد ذلك قائمة كما حصل لقرطاجة بعد الحرب البونيقية الثانية

وقد كانت نتائج هذه الحرب عظيمة جداً فان رومة سادت على اوروپا الغربية باسرها وعلى جميع شواطئ البحر المتوسط الغربي

ولم يبق لها به مزاحم فطمحت الى التوسع فى امتلاك البلاد الشرقية حتى يكون لها ملك البحر الابيض المتوسط من أوله لآخره وساعدها على مقصدها ما صارت اليه حالة العالم الشرقي من الانحلال عقب سقوط المملكة الواسعة الاطراف التي أسسها اسكندر الاكبر باني اسكندرية المتوفي سنة ٣٢٣ ق م وتقسيم قواده مملكته الى عدة ممالك صغيرة واستمرار الحروب بين هذه الامارات كما حصل فى أواخر خلافة العباسيين فى نفس هذا العالم الشرقي مما كان سبباً لتلاشيه كما كان السبب بعينه سبباً لتلاشى ملك الاسكندر وامتلاك الرومانيين لهذه الامارات جميعها الواحدة بعد الاخرى كما سيأتي فى الجزؤ التالي

وكذلك كانت بلاد اليونان الاصلية منفصمة العرى لا تضافر ولا ارتباط بين مدنها اذ كانت كل مدنية تصبو الى التسلط على جارتها والتهام ما تصل اليه يدها من أراضيها وبالاختصار فلم يكن فى الشرق دولة يمكنها مقاومة اطماع الدولة الرومانية وصد غاراتها عن الشرق . نعم لو اتحدوا معاً ونبذوا الانقسام ظهريا لامكنهم حفظ استقلالهم امام أى دولة مهما كانت قوتها فالعروة الوثقى لا انفصام لها . لكنهم لم يلتفتوا الى هذه الحقيقة الباهرة بل استمروا على تفرقهم فسطت الدولة الرومانية عليهم وحرمتهم استقلالهم وسلبتهم حريتهم وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاء ما كانوا يفعلون

ولم تكتف هذه الدول الشرقية بالتفرق والانقسام بل تهافتت

على التملق لرومة والتودد اليها والاستنجاد بها على بعضها البعض مما كان سبباً لتداخلها فى شؤون بلادهم الداخلية فقد ابرمت حكومة البطالسة بمصر مع رومة معاهدة محبة وولاء منذ سنة ٢٧٩ ق.م. ولما كان من القوانين الطبيعية المقررة بالشواهد العديدة ان كل اتحاد بين أمتين احداهما اضعف من الاخرى تكون نتيجته حتما تداخل القوية منهما في شؤون حليفتها مع الزمن بدعوى النصيحة والارشاد والتسلط عليها فى آخر الامر تسلطاً أدبياً ثم يستحيل هذا التسلط الادبي الى تسلط فعلي وإمتلاك حقيقي

ولم تنج مصر في عهد البطالسة من نتائج هذا الناموس الطبيعي بل تداخلت الحكومة الرومانية في شؤونها شيئاً فشيئاً حتى تحصلت بمساعيها لدي وزراء مصر عند تولية بطليموس الخامس الذي كان سنه لا يتجاوز الخمس سنوات على أن تكون الوصاية عليه مدة طفوليته الى أن يبلغ رشده لسناتو رومة فكانت شؤون مصر فى عهده في يد الحكومة الرومانية بصفة وصية ونحن نعلم كيف تكون معاملة الوصى للموصى عليه في مثل هذه الظروف. وأمام أعيننا الشواهد العديدة على ذلك في عهد احتلال انكلترا لمصر وادارتها شؤنها بصفة وصية الا أن الفرق بين هاتين الحالتين أن رومة عينت وصية على ملك قاصر وبطلب وزرائه وانكلترا عينت نفسها وصية على مصر التعيسة وخديويها توفيق باشا بالغ رشيد واستمرت وصايتها بعد موته وشهادة العموم بان خليفته عباس باشا الثاني لا يقل ذكاء وحباً لخير بلاده عن أحسن

﴿ حرب مقدونية ﴾

وبعد ان انتهت الحروب مع قرطاجة بالكيفية السابق شرحها وفازت رومة بالظفر وقيدت عدوتها بمعاهدات تجعلها تحت حمايتها الفعلية وألزمتها بمحالفة مسنيسا ملك نوميديه وقوته بجوارها ليكون مراقباً عليها وعوناً لرومة عند الحاجة وجهت رومة التفاتها للانتقام من فيليب ملك مقدونية الذي اتحد مع أنيبال عليها فقرر السناتو محاربته لاذلاله واضعافه فيؤمن شره في المستقبل خصوصاً وانه كان باذلاً جهده في الاتحاد مع انتيوكوس [1] ملك الشام وبروسياس ملك بثينيا [2] على محاربة بطليموس مصر الذي كان تحت حماية رومة وسلبه أملاكه في

(١) هو انتيوكوس الثالث حفيد انتيوكوس الاول بن سيليسوس الاول أحد قواد اسكندر الاكبر الذى اختص بالشام وما جاورها عند تقسيم أملاك الاسكندر بعد موته واليهم تنسب مدينة انطاكيه الموجودة للآن

(٢) بثينيا اقليم في الشمال الغربي لآسيا الصغري وأسس ملكاها الاول والثاني مدينة بروزه التي تحرف اسمها فيما بعد فصار بروسة أو بورسه المشهورة بقبور آل عثمان الستة الاول

بلاد سوريا وغيرها وحصره في حدود مصر الطبيعية

ولقد كان الشعب الرومانى غير موافق على الحرب في أول الامر لما قاساه من المشاق في محاربة أنيبال ثم اقتنع بضرورة اشهار الحرب على فيليب حتى لا يكون بجوار ايطاليا ملك قوي يخشى من تعديه يوماً ماعلى حدودهم كما فعل مساعدة للقرطاجيين

وعين القنصل سولپسيوس لمحاربته فسار الى بلاد مقدونية سنة ٢٠١ ودخلها من جهة الغرب وفتح منها عدة مدن . ولما جاء الشتاء عاد الى مدينة أپولونيا على بحر الادرياتيك لقضاء فصل الشتاء

وفي ربيع سنة ٢٠٠ قبل المسيح أتى الى المعسكر القنصل ويلنيس الذي انتخب لهذه السنة فرأي الجند في حالة عصيان وهيجان لايجسر معها على مهاجمة العدو فقضى مدته في تنظيم الجند واعادة السكينة اليه وظن فيليب ان الرومانيين لم يهاجموه لضعف في قواهم فأتى بجيشه وعسكر على ضفتي نهر أوس[1] الذي يمر بالقرب من أپولونيا ويصب في البحر الادرياتيكي وامتنع في محل بالغ في تحصينه حتى خشيت رومة عاقبة وجوده في هذه النقطة وأرسلت فلامينوس الذي برهن على كفائته في الحروب السابقة لقيادة الجيش المحارب في مقدونيه

---

(١) نهر صغير اسمه (Voïoussa) ويمر باقليم (ابيروس) التابع لولاية يانيه العثمانية

ولقد حقق هـذا القائد اعتماد أهل بلاده فيـه وانتصر على فيليب في سنة ١٩٨ ق . م انتصاراً عظيماً وتبعه في تقهقره الي اقليم (تساليا) وقضى شتاء هذه السنة في قلب بلاد اليونان ليستميل اليه القبائل المعادية لفيليب فانضم اليه كثير منهم حتى اذا أتى ربيع سنة ١٩٧ كان قد أدخل في عداد جيوشه كثيراً من اليونان انفسهم

وحارب فيليب في شهر يونيو بجيش تعداده ستة وعشرين الف مقاتل بينهم ثمانية آلاف من اليونان المنضمين اليه وانتصر عليه نصرة عظيمة لم يقم له بعدها قائمة بل اضطر لطلب الصلح وقبول شروط فلامينوس بدون تغيير أو تحوير

وأهم هذه الشروط ان يكتفي بملك مقدونيا ويسحب عساكره من باقي بلاد اليونان بأوروبا وآسيا ويعيد الى تساليا استقلالها ويسلم جميع السفن الحربية وغيرها الى الحكومة الرومانية ولا يبقى بطرفه غير خمس مراكب نقل لاغير ويحل جميع جيوشه الا خمسمائة جندي لحفظ الامن داخل بلاده وان لايحارب أحد مجاوريه بدون اذن وتصريح الحكومة الرومانية وتعهد بأن يدفع خمسماية تالنت غرامة حربية وخمسين الف دينار جزية سنويه لمدة عشر سنين وقدم على تنفيذ هذه الشروط عدة رهائن منها ولده ديمتريوس

وبذلك أضعفت رومة ملك مقدونيه كما فعلت مع قرطاجة فأمنت مجاوريها شرقاً كما أمنت شرور قرطاجة جنوباً وغرباً ولم تجهز على مقدونيا وتجعلها ولاية رومانية للأسباب التي ذكرناها في

آخر الحرب البونيقية الثانية بل اتبعت سياسة الحكمة والسداد والاصابة والرشاد

وبعد ان تم خضوع فليب وأمنت رومة جانبه استمالت جميع اليونانيين اليها حتى لا ينضموا فيما بعد اليه أو الى غيره ممن يدعونهم لمحاربة رومة فمنحتهم جميعاً الحرية في داخلية بلادهم وجعلت كل بلد مستقلة عن الاخرى تمام الاستقلال أو متحدة مع بعض مجاوريها اتحاداً بسيطاً فشكرها اليونانيون شكراً جزيلا على هذه المنة لاعتقادهم انها تروم لهم كل خير وأقاموا الولائم والاحتفالات شكراً لصنيعها واعتقوا من كان لديهم فى حالة الرق من أسرى الرومانيين الذين باعهم القرطاجيون بيع الانعام ولم يفطنوا الى ما كانت تبطنه لهم الحكومة الرومانية من الشر والخديعة السياسية فانها كانت تقصد بعملها المذكور التفريق بينهم وفصم عرى اتحادهم فلا تخشى بأسهم حالا واستقبالا وتتركهم فى حالة الاستقلال الظاهر أشتاتا لا رابط يجمعهم ولا وحدة بينهم يفتقر كل منهم لحمايتها ضد جيرانه من ابناء جنسه فيكون الجميع تحت حمايتها الفعلية لاغنى لهم عنها مطلقا حتى اذا آنست منهم ضعف العواطف الوطنية والحمية المالية سلبتهم استقلالهم وجعلتهم ولايات رومانية تابعه اليها رأساً فلا يقووا اذ ذاك على مقاومتها بالقول أو بالفعل لما يكون نخر عظامهم من سوس التفريق والانحلال

ولقد أصابت رومة في هذا العمل من وجهتها الانانية ولو انها

ألحقت باليونانيين اضرارا بليغة مادية وأدبية فنافع قوم مصيبة أخرين. وقانون التزاحم في الحياة النباتية والحيوانية يقضى بافتراس القوى الضعيف بالقوة والسيف أوالسياسة والدهاء تبعاً لدرجة المفترس الهمجية أو المدنية

ولما انتهت الحرب مع فليب بالكيفية السابقة رجع أغلب الجنود الرومانية وعاد القائد فلامينوس الى رومة فدخلها فى موكب النصر حسب المعتاد لدى القوم لكن أبقى في بلاد اليونان فرقة رومانية لمراقبة حركات فيلب المقدوني من جهة وخوفا من تعدي انتيوكوس ملك سوريا حدوده واختياره البحر لمحاربة الرومانيين اتباعا لوساوس انيبال الذي ماأنفك ساعيا في تأليف المحالفات ضد رومة انتقاما منها على انتصارها عليه فهو الذي كان سعى في تحريض فليب المقدوني على محاربتها

ولما لم يفلح وثبت للحكومة الرومانية تداخله وتحريضه طلبت من قرطاجه نفيه خارج البلاد خصوصاً وانها رأت منه اهتماما زائداً في اصلاح داخلية بلاده وخشيت لو استمر على خطته الاصلاحية من أن تقوي قرطاجه يوما مامن استرجاع مافقدته من القوة والشرف في الحرب الاخيرة فهرب انيبال خفية وأتى الى انطاكية يحرض ملكها على محاربة رومة العدوة اللدودة لبلاده

﴿ محاربة انتيوكوس ملك الشام ﴾

ولما كان انتيوكوس يطمح بنظره الى امتلاك ما كان تحت سلطان اسكندر الاكبر من البلدان وخصوصاً في آسيا الصغرى وأقليم (تراس) المسمى اليوم بالروملي والباقي للآن تحت حكم الدولة العلية مال الى نصائح انيبال وقبلها بكل ارتياح وجهز جيشاً عظيماً لمحاربة الرومانيين واجتاز البحر الى بلاد اليونان وانضم اليه من اليونانيين احدى القبائل التي كانت مصافية للرومانيين ومحالفة لهم ضد فيليب المقدوني ثم انقلبت عليهم لعدم حصولها على ما كانت تبتغيه من الضيع والبلاد فارسلت رومة الجيوش من ثغر برنديس (الان برنديزى) الى بلاد اليونان وساعدتها قرطاجة بارسال جانب عظيم من الفلال وكذلك انضم اليها فيليب المقدوني عدوها السابق وحكومة قرص وباقي الحكومات اليونانية المستقلة التي كانت تخشى على استقلالها من مطامع انتيوكوس فانتصر عليه الرومانيون ومحالفوهم تحت قيادة كانتون في عدة مواقع وأخيراً تقابل الجيشان في مضيق (الترموپيل) [1] في يوليه سنة ١٩١ ق . م وفاز الرومانيون

(١) اشتهر هذا المضيق بمناعته وهو يعتبر بمثابة مفتاح للجزؤ الجنوبي لبلاد اليونان المعروف الآن باسم موره وكان اسمه عند اليونان Péléponèse وحصلت فيه عده وقائع شهيرة اهمها سنة ٤٨٠ قبل المسيح حين ماقصد الفرس

بالغلبة وفر انتيوكوس الى آسيا الصغرى بعد ان اجتاز (اقليم تراس) وعبر بوغاز الدردنيل [١] فتبعه الرومانيون الى بر الاناطول وهي أول مرة وطأ فيها الرومان أرض آسيا وبمجرد دخولهم الى هذا الاقليم انضم اليهم كثير من الامارات الصغيرة التي قامت على اطلال مملكة الاسكندر لما سمعوه من معاملة الرومانيين لأهالي اليونان ومنحهم الحرية في نظاماتهم الداخلية ودخل كثير منهم في عداد جنود الرومانيين

أما انتيوكوس فتقهقر الى مدينة (افسوس) [٢] وصده عنها سكانها بعد ان حاول احتلال مدينة (برغامه) [٣] تحت قيادة ملكهم Eumène حليف الرومان

بلاد اليونان تحت قيادة ملكهم اكسرخس فوقف لهم فيه ليونيداس ملك اسپارته ومعه ثلثماية من أهل بلاده وهزم بدسيسة خائن دل الاعاجم على طريقة اخرى لاجتياز هذا المضيق فاستشهد ليونيداس ومن معه بعد ان دافعوا عن ارواحهم وبلادهم دفاع الابطال

(١) هو البوغاز المشهور كان اسمه عند اليونان (هلسپونت) يبلغ طوله ٧٠ كيلو متراً وعرضه في بعض النقط ١٨٠٠ متراً فقط وهو منيع جداً وعلى ضفتيه قلاع حصينة تجعل المرور منه فى غاية الصعوبة وفي سنة ١٨٤١ امضيت معاهدة تحجر على الدول الحربية المرور منه الا باذن الباب العالى واسمه مشتق من اسم مدينة اسمها دردانيا كانت على ضفته الاسيوبه

(٢) كانت هذه المدينة ذات أهمية في صدر المسيحية وانعقد بها عدة مجتمعات دينية للمناقشة في أصول الدين المسيحى

(٣) كانت من أشهر مدن اليونان بآسيا الصغرى وكان بها مكتبة عامرة تضارع مكتبة الاسكندرية

وفي ٥ اكتوبر سنة ١٩٠ ق . م دخل الرومان الى معسكر انتيوكوس بالقرب من مدينة مغنيسيا[1] وهزموه هزيمة لم تقم له بعدها قائمة واضطروه لقبول ماعرضوه عليه من شروط الصلح التي تشبه من جميع الوجوه ما أبرم مع قرطاجة وفيليب المقدوني وهي انه لايجوز له محاربة أحد مجاوريه بدون اذن سناتو رومة وان يسلم مالديه من أفيال الحرب الي ملك برغامه ويدفع اليه غرامه حربية تساوي مائة الف جنيه من عملة هذا الزمان وان يدفع لرومة غرامة تعادل ثلاثة ملايين جنيه ويسلمها جميع مراكبه الحربية وان ينسحب الى ماوراء جبال طوريس بحيث يكون هذا الجبل حداً لاملاكه من جهة الشمال وأخيراً اشترطت عليه تسليم أنيبال أكبر محرض على هذه الحرب التي كانت القاضية على ملك انتيوكوس فكان أنيبال لم يكتف بما أصاب بلاده من الضرر بسبب مطامعه فاوقع محاربيه في ماوقع هو فيه من المصائب ولما علم ان انتيوكوس قبل تسليمه الى الرومانيين فر هارباً واحتمى لدى بروزياس ملك بثينيا

وقد وزع الرومان ما أخذوه من بلاد انتيوكوس على محالفيهم من اليونان ولم يبقوا لأنفسهم شيئاً منها واعطوا معظمها الى أكبر حلفائهم وهو Eumène ملك برغامة فصار بالنسبة لانتيوكوس كمسينسا ملك نومديا بالنسبة لقرطاجة

---

(١) اسمها الآن منيسيا بولاية آيدين وهي واقعة على خط السكة الحديد الواصل بين أزمير والاشهر

وبعد ان أتموا اخضاع هذا الاقليم ورتبوا أموره ووطدوا ربط الاتحاد بين سكانه وبين الحكومة الرومانية عادوا الى أوروبا ولم يتركوا نفراً من جنودهم في البلاد التي فتحوها بل ردوها لاصحابها مكتفين بأن يكونوا لهم أصدقاء مخلصين لا أعداء معاندين كما فعلوا مع بلاد اليونان سابقاً فوجدوا منهم أكبر عضد وأعظم مساعد عند مرورهم من بلادهم قاصدين آسيا الصغرى. نعم ان بعض القبائل انقلبت على الرومانيين في أوائل محاربة انتيوكوس لاعتقادها انها لم تحظ بما تستحقه من المكافئة بعد مساعدتها الرومان في أول الامر على محاربة فيليب المقدوني الا أنها لم تر بداً من الاذعان بعد ان لقيت من الرومان يداً قوية فى معاقبتهم على خيانتهم لها وعدم محافظتهم على ولائها

وبذلك لم يبق لرومة مجاور تخشي تعديه على حدودها بل لم يبق على ضفاف البحر المتوسط أمة غير متحالفة معها وبعبارة أخرى غير خاضعة لها بالفعل ولكن لاعتقادها عدم المقدرة على جعل بلادهم ولايات رومانية بحتة تركت لها هذا الاستقلال الظاهري حتى تتمكن من اخضاعها تماماً تبعاً لمقتضيات الظروف ودواعي الاحوال

ولا يخفى مابين هذه السياسة وسياسة الدول الاوروبية مع الأمم الشرقية في هذه القرون الاخيرة من التشابه فمن راجع تاريخ احتلال الانكليز لبلاد الهند وامتداد نفوذهم تدريجاً تارة بالفتح وغالباً بابرام المعاهدات الودادية (كما يسمونها) مع الامراء

والحكام وايقاد نيران البغضاء والشحناء بينهم ومساعدتهم على بعضهم البعض لاضعافهم وتفريقهم وما تبذله انكلترا الآن من هذه السياسة المبنية على الانانية وحب النفس في بلاد افريقية بمساعي رجالها مثل سسيل رود في الجنوب والكابتن لوجارد في الوسط واللورد كرومر في الشمال يتحقق ان الانكليز تشبهوا في سياستهم الاستعمارية بالرومانيين الذين سبقوهم في هذا المضمار

وقد كانت نتيجة اتعابهم أجيالا متعاقبة الخراب والدمار لما تغلبت عليهم اللذات ومالوا مع الهوى بسبب كثرة أموالهم وشدة غناهم

وحيث قد شوهد ان الحوادث التاريخية تتكرر فلابد أن تكون عاقبة الانكليز سيئة جداً لو داموا على هذه الخطة خطة الاثرة وامتهان حقوق الضعفاء والاكثار من امتلاك البلاد فان ذلك قد اثار وطمع الامم الاخرى فقامت لمزاحمتها وسيكون لها من المانيا والروسيا في المستقبل أكبر منافس في المسائل الاستعمارية وأعظم محافظ على طريق الاستعمار وهو مصر ونؤمل أن تكون نتيجة هذه المزاحمة والمنافسة خير لمصرنا التعيسة فتحصل على مايضمن لها استقلالها بحماية جميع الدول ذات الصالح في حفظها من السقوط في أيدي دولة واحدة تقفل طريقها وتوصد أبوابها في وجه من خالفها أو عاداها

بعض حروب أخرى

موت أنيبال

هـذا وفى أثناء الحروب المتوالية فى مقدونية وآسيا الصغرى هاجت القبائل الايبرية النازلة باسپانيا طلباً للاستقلال فأرسلت الجيوش الرومانية تباعاً لقمعهم والزامهم الرضوخ والسكينة فقاوموا مدة وكانت الحرب بينهم وبين الرومانيين سجالا الى أن تغلب عليهم فى آخر الامر القائد سمپرونيوس جراكوس Sempronius Grachus وألزمهم الطاعة

وكذلك مالت قبائل الغال النازلة في شمال ايطاليا الى الثورة والعصيان فقمعوا وبقى فى ايطاليا من أراد البقاء وهاجرت عدة من القبائل التي لم ترض ان تكون تحت ذل واستعباد الرومانيين وأثرت هجرة الوطن الى غيره من بلاد الله الواسعة طلباً للاستقلال والتمتع بالحرية بعيداً عن مرامى أنظار الرومانيين ونزلت على شواطئ نهر الدانوب

ولما استتب الامن باسپانيا وشمال ايطاليا واستراح بال الحكومة الرومانية من جهتهم كما استراح من جهة بلاد اليونان واسيا الصغرى لم تجد الوقت الكافي لتنظيم داخليتها والنظر فيما يعود عليها بالتقدم فى ميادين التمدن والارتقاء فى معارج الفلاح بسبب ما كان

يدسه فليب المقدوني من الدسائس في بلاد اليونان ويبذره من بذور الشقاق بين مدائنها التنفصل عن الاتحاد مع رومة وتحصل على تمام استقلالها ومن كان يرسلهم من الرسل الي متبربري الجهات الشمالية ليشنوا الغارة على بلاد الرومان فيشتغلون برد غاراتهم عن بلادهم ويخلو له الجو في بلاد اليونان فيفتح جميع مدنه ويصير هو ملكا مطلقاً بها الامر الذي كان يسعى جهده لنواله من مدة واتحد مع سكان التراس (الروملي) واحتل جزواً منها ليس بقليل وأسس مدينة في مركز متوسط يلجأ اليه عند الضرورة وسماها فيليبوبوليس[1] نسبة اليه فأرسلت رومة القائد الشهير فلامنيوس لتسكين الخواطر في اليونان والقبض على أنيبال القرطاجي الذي كان نزيلاً عند بروزياس ملك بثينيا وينفث سم دسائسه في بلاد اليونان ويحرض فيليب وغيره على معاداة رومة ومنازلتها انتقاماً منها على ما أتته مع قرطاجة

ولما اخترق فلامينوس بلاد اليونان وأعاد السكينة اليها قصد عاصمة ملك بروزياس وطلب منه تسليم أنيبال فلم ير بداً من الاذعان لطلباته خوفاً من سطوة حكومته وخشية ان تمد رومة يدها الخاطفة الى بلاده خصوصاً وانها لم تخل عليه بأقطاعه بعض أملاك انتيوكوس فامر بالقبض عليه واحضاره ولما علم أنيبال بذلك تجرع السم بنفسه حتى لايقع في أيدي من لم يرحمه (سنة ١٨٣ ق م) وبذلك

(١) لم تزل هذه المدينة باقية للآن واسمها الحالى فيلية وهي عاصمة امارة البلغار

انتهت حياة هـذا البطل الذي زعزع أركان الحكومة الرومانيـة وكاد يدخل رومة لولا وطنية الامة الرومانية وثباتها امام النوائب والنوازل وبذلها الأموال والارواح لانقاذ وطنها من احتلال الاجنبي واجلائه عنها

ولما علم سناتو رومة بمساعي فيليب اطلق صراح ابنه دمتريوس الذي كان أخذ ضمن الرهائن وارسله لبلاده ليكون نصيراً للرومان على والده فذهب الى مقدونيا وصار رئيساً للحزب المصافي للرومانيين وكان له خ لابيه يدعى (پرسي) نخشي پرسي من ان يرث دمتريوس الملك بعد أبيه دونه بسبب ان والدته ليست من العائلة الملوكية فسعى به لدي والدهما واقنعه بان دمتريوس يؤامر لقتله فحنق عليه والده وقتله سـنة ١٨١ ثم ندم على تسرعه وحزن حزناً شديداً كان سبباً لوفاته في سنة ١٧٩ فخلفه ابنـه پرسي المعادي للرومانيين وتظاهر في أول أيامه بقبول الشروط التى قبلها والده وأخذ في استمالة القبائل المجاورة له وملوك اليونان بآسـيا الصغرى وفى تحريض المتبربرين على تعدى الحـدود الرومانيه وأرسل وفداً الى قرطاجة يطلب منها المساعدة والمعاونة سراً وأخذ يستعد لمحاربة الرومانيين ومنازلتهم

محاربة مقدونة وجعلها ولاية رومانيه

ولما علم ملك برغامة بهذه الاستعدادات اخبر الحكومة الرومانية لتأخذحذرها لكي لاتتهمه فيما بعد بمائلة المقدونيين فأرسلت رومة وفداً مؤلفاً من سبعة أشخاص الى بلاد اليونان لابطال مساعي (پرسيه) وتحذيرهم من سوء العاقبة لو اتبعوه وأرسلت لمقدونية جيشاً من خمسة آلاف مقاتل في سنة ١٦٩ ق.م وانقضت هذه السنة في مناوشات خفيفة بين الطرفين لم تأت بفائدة قطعية

وفي سنة ١٦٨ انتخب پوليوس لمليوس [1] قنصلا وسافر للانضمام للجيش المحارب في مقدونية وبعد ان أعاد النظام الى الجيش وحرنه على الحرب في عدة مواقع ومناوشات صغيرة قصد العدو وحاربه في سهل فسيح بالقرب من مدينة پيدنه [2] وانتصر عليه نصراً عظيماً في ٢٢ يونيه سنة ١٦٨ أثبت به أفضلية النظام الروماني على النظام اليوناني الذي كان وضعه اسكندر الاكبر بعد تجاربه العديدة

---

(٥) هو ابن پول أميل الشهير الذي حارب القرطاجيين في الحرب البونيقية الثانية مع (فارون) وانتصر عليهم سنة ٢١٦ ق — م كما سبق ذكره في موضعه

(١) Pydna واسمها الآن كيتروس وهي واقعة على خليج سلانيك ببلاد الدولة العلية

وبعد ان تبدد شمل الجيش المقدوني هرب (پرسيه) ولجأ الى بعض القرى الصغيرة ثم سلم نفسه للقائد الروماني مع بكر أولاده بسبب وقوع أولاده الآخرين بين أيدي الرومانيين بدسيسة وخيانة أحد أتباعه فارسله وأولاده الى رومة

وأعلنت الحكومة الرومانية بحرية بلاد مقدونية ولم تضم اليها شيئاً منها في بادئ الأمر اكتفاء بأخذ نصف ما كان يدفعه پرسيه من الجزية ثم قسمت هذا الاقليم الى أربعة أقسام وحجرت على أهالي كل قسم الاتجار والتزاوج مع سكان القسم الثاني حتى تنحل من بينهم روابط الوطنية والقرابة وقسم كذلك اقليم إليريا الى ثلاثة أقسام بهذه القيود

أما پرسيه فسجن في مدينة رومة ولم تطل مدته به فانه امتنع عن الاكل حتى مات جوعاً

ولقد كان لانخذال پرسيه ووقوعه في أسر الرومانيين دوي عظيم في جميع بلاد اليونان بل في جميع الممالك الواقعة على شواطئ البحر المتوسط فحضر پروزياس ملك بثينيه الى رومة ومثل امام مجلس السناتو بكل خشوع وخضوع . وأراد ملك برغامة ومسينسا ملك نومديا الاقتداء به فمنعتهما الحكومة الرومانية عن مفارقة بلادهم وألزمت ملك انطاكيا الكف عن محاربة مصر والعودة لبلاده ورد ما أخذه من مصر اليها . ونفت من بلاد اليونان كل من كان معارضاً لاعمالها أو متظاهراً بالميل ولو قليلا لجانب ملك مقدونية

وبالاختصار صارت هي الدولة الوحيدة المسموعة في جميع هذه البلاد وخشي سطوتها البعيد قبل القريب

لكن لم تكف هذه الاجراآت لالقاء الرعب في قلوب اهالي مقدونية بل أخذوا يسعون جهدهم في تحرير بلادهم وتخليص وطنهم من تسلط الاجنبي فأثاروا الأهالي أكثر من مرة وحصلت بينهم وبين جيوش الرومان حروب سالت فيها الدماء أنهاراً وقتل فيها أغلب هذه الفئة الغيورة على استقلال بلادها وأخيراً لما تضعضع حال البلاد وصارت غير قادرة على ابداء أقل مقاومة وقتل سراتها واشرافها أعلن مجلس سناتو رومة في سنة ١٤٢ بجعل بلاد مقدونية ولاية رومانية وسلبها ما كان تركه لها من الاستقلال الظاهري

وكذلك لما نخر الشقاق عظام الأمم اليونانية وانفصمت عرى اتحادها وصارت أشتاتاً تسعى كل منها للاضرار بأختها للتقرب من رومة وماتت العواطف الوطنية فيها بدسائس الرومان أعلنت الحكومة الرومانية بجعل بلاد اليونان ولاية رومانية واحدة وبذلك نجحت سياسة رومة أي نجاح وزال استقلال بلاد اليونان ومقدونيا تماما وصارت ولايات رومانية كما تبعها غيرها تدريجاً حتى صار البحر الابيض المتوسط بحيرة رومانية كما سترى

(زوال ملك قرطاجه وخرابها)

ولنتكلم الآن بالايجاز عما حصل لهذه الجمهورية الافريقية القديمة من بعد ان أخضعها الرومانيون عقب الحرب البونيقية الثانية وحصروا دولتهافي بلاد تونس وأوجدوا بجانبها جارا شديد البطش عليها قديم العداوة لها وهو مسينسا ليكون في جسمها كالسرطان في جسم العليل ان بريء من جانب ظهر في الجانب الآخر حتى يقضي العليل نحبه ويستريح بالموت الاحمر من هذا الداء الازرق هكذا كانت حال قرطاجه بعد الشروط القاسية التي قبلتها مضطرة غير مختارة عقب انهزام بطلها الشهير انيبال في موقعة (زاما) فان مسنيسا ما انفك بعدها يوجد كل يوم سبباً للشقاق بينه وبين قرطاجه ويتعدى الحدود المعينة له ويختلس الاراضي بدون أن تجسر الحكومة القرطاجية على صد هجماته أو منع تعدياته بسبب الشروط التي تم عليها الصلح بينها وبين رومه التي تحرم عليها اعلان الحرب على أحد مجاوريها بدون تصريح الحكومة الرومانية فكانت تكتفي بالشكوى الى باب سناتو رومه الاعلى ولا تجد منه الا أذناً صماء حيث كان من صالح رومة اضرام نار الفتن بين الجارين حتى تحصل على ضالتها المنشودة وهي الاجهاز على قرطاجة يوماً ما

لكن لما كثرت شكوى قرطاجة من جارها أرسلت الحكومة

الرومانية رسلا لتسوية مابين الجارين من الخلاف وتوطيد أسباب الاتفاق والوئام بينهما الى حين

وكان من ضمن أعضاء الوفد (كاتون) فوجد حالة قرطاجة في غاية اليسار وخزائنها ملآي بالدراهم ومخازنها مفعمة بالاسلحة والذخائر الحربية وتجارتها رابحة على عكس ما كان يؤمل الرومانيون بعد انتصارهم

ولما كانت هذه الحالة المرضية غير منطبقة على رغائب أمته انقلب كاتون على قرطاجة وصار من أكبر المحرضين على التعجيل بالاجهاز عليها قبل ان تزداد قوتها فيخشي منها وتضطر رومة الى محاربتها حرباً ربما كانت عاقبتها وخيمة على الامة الرومانية . وصار يخطب بذلك في كل صقع وناد ويختم خطاباته ومحرراته بهذه العبارة التي صارت في اللغات الاوروبية الى الآن مجرى الامثال وهي Delenda est Corthago ومعناها يجب تخريب قرطاجة

ولقد أثرت خطاباته هذه في الرأي العام وبالتالى في رجال الحكومة تأثيراً شديداً حتى اقتنعوا بضرورة محاربة قرطاجة ثانياً وجعلها ولاية رومانية بسيطة وانتهزت لتنفيذ غرضها هذا فرصة تعدي مسنيسا على حدود قرطاجة وقيام الجنود القرطاجيين لصد غاراته فأعلنتها رومة بأنها خالفت نص شروط الصلح بمحاربتها جارها بدون استئذان سناتو رومة فأزعنت قرطاجة للقوة واسترجعت جيوشها وتركت مسنيسا يعيث في حدودها فساداً ارضاء لخاطر الحكومة الرومانية واذعاناً للقوة دون الحق

ومع كل هذا التذلل لم تعاملها رومة بالعدل بل أرسلت اليها جيشاً مؤلفاً من نحو ثمانين الف مقاتل تحت قيادة سيبيون اميليان Scipion Emilien (في سنة ١٤٩ ق.م) لمجازاتها على اخلالها بالعهود ولما رأت قرطاجة ان الرومانيين ينوون محوها من عالم الوجود عادت الشجاعة الى أهلها وتعاقدوا وتضافروا على محاربة الاجنبي حتى يموتوا عن آخرهم أو يعيشوا أحراراً خصوصاً بعدان ظهر قصد رومة السيئ وعدم اقتناعها بأخذ جميع مالدى القرطاجيين من الاسلحة ومعدات الحرب وطلبها خروج جميع السكان من المدينة وسكناهم بعيداً عنها بمسافة عشرة أميال عند ذلك قفل القرطاجيون أبواب مدينتهم وأخذوا في الاستعداد للحرب آناء الليل وأطراف النهار وجمعوا كل مالديهم من الاشياء الحديدية وصنعوا منها أسلحة جديدة غير التي أخذها الرومانيون وقبض الحزب الوطني على أعنة الحكومة وقتلوا كل محازب لرومة وجمعوا جيشاً مؤلفاً من نحو سبعين الف مقاتل تحت أمرة قائد وطني يدعى ازدروبال وتفانت النساء قبل الرجال في الاستعداد للحرب حتى قيل انهن قطعن شعورهن لتصنع منها الحبال اللازمة للمنجنيقات التي وضعت على أسوار المدينة. لكن لم تجدهم كل هذه الاستعداد نفعاً فان الرومانيين احتلوا ثغر (أوتيك) وحاصروا مدينة قرطاجة براً وبحراً ومنعوا وصول المؤونة اليها ليضطروها للتسليم جوعاً

وأتى كل من الفريقين من الاعمال الحربية بما شهد له القواد المتأخرون ومن ضروب القتال وفنون الاستحكام للهجوم من

جهة والدفاع من الجهة الاخرى

وبعد ان استمر الحصار بهذه الكيفية نحو سنة انتصر سيبيون الروماني على ازدروبال الذي كانت تنتظر قرطاجة نجاتها بنجاحه وأخيراً دخل الرومانيون المدينة عنوة لكنهم لم يصلوا الى القلعة القائمة في وسطها الا بعد ان حاربوا الاهالي في الشوارع شارعاً فشارعاً بل بيتاً بيتاً مدة ستة أيام وست ليال متوالية وأخيراً سلم من بقي فيها من المحاربين ومعهم قائدهم ازدروبال ولم يصبر على المقاومة الا نحو الف شخص امتنعوا في هيكل اسكولاب (آله الطب عند قدماء اليونان والرومان) وأضرموا فيه النار ليموتوا عن آخرهم حتى لا يروا خراب بلادهم وكان بهذا الهيكل زوجة ازدروبال ومعها ولداها فصعدت بهما الى أعلى الهيكل وقتلتهما بيدها امام زوجها بعد ان وبخته على خيانته لوطنه ثم القت بنفسها من شاهق الهيكل فسقطت في النار وذهبت ضحية الوطن بينما كان زوجها يئن في حالة الاسر والذل والخذلان

ثم أصدر سناتو رومة أمراً سامياً بجعل الاراضي التابعة لقرطاجة ولاية رومانية وأطلق عليها اسم (افريقا) وبذلك زالت هذه الامة من الوجود السياسي بعد ان بلغت من العمران واتساع نطاق الاستعمار شأواً عظيماً ونالت من التجارة الارباح الباهظة . دخلت في خبر كان وصارت أثراً بعد عين شأن جميع الدول والممالك قديماً وحديثاً اذ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام

﴿ تم الجزء الاول ﴾

BIBLIOTHEQUE EGYPTIENNE
دار الكتب المصرية
EGYPTIAN LIBRARY

فهرست

صحيفة

٢ المقدمة

﴿ القسم الاول ﴾

٤ تأسيس مدينة رومه

٨ الملك نوما پونبيليوس

١٢ الملك انكوس مارسيوس

١٤ الملك تركان الاول

١٦ الملك سرڤيوس تليوس

١٩ الملك تركان الثاني

﴿ القسم الثاني ﴾

٢٢ الحكومة الجمهورية

٣٠ نظامات الرومانيين الاولى

٤٠ الجمهورية في عهد القناصل الاشراف

٥٢ خيانة كوريولان

٥٦ حكومة العشرة وحصول الشعب على المساواة في الامور المدنية

٧٤ اغاره الغاليين على رومه

٧٩ حصول الشعب على المساواة فى الحقوق السياسية

٨٤ فتح ايطاليا

obeikandl.com

صحيفة

٩٠ ادارة وتنظيم الاقاليم الايطالية
٩٣ الحروب البونيقية الاولى
١٠٣ اغارة بعض الغاليين على رومة
١١١ الحرب البونيقية الثانية
١٣٧ حرب مقدونية
١٤٢ محاربة انتيوكوس ملك الشام
١٤٧ بعض حروب أخرى وموت أنيبال
١٥٠ محاربة مقدونيه وجعلها ولاية رومانية
١٥٣ زوال ملك قرطاجه وخرابها

obeikandl.com